عاشقة النار

د. موزة عبدالله المالكي

الكتاب : عاشقة النار (قصص قصيرة)
المؤلف : د.موزة عبدالله المالكي
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٣
رقم الإيداع : ٢٠١٣/٣٩٢٧
الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 123- 9

الناشر
شمس للنشر والإعلام
٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة
ت/فاكس: ٠٠٢٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(+٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(+٢)
www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

شمس
للنشر والإعلام

عاشقة النار

قصص من واقع الحياة

د. موزة عبدالله المالكي

تقديم

الأستاذ الدكتور / أحمد عكاشة

من المعلوم أن النفس البشرية السوية أفضل ما في الكون، والكون بما فيه مسخر للبشر جميعًا، ولكن النفس البشرية السوية الخالية من العطب والكدر هي التي تتفاعل مع هذا الكون تفاعلاً كاملاً بناء ينتج عن هذا التفاعل بناءً وإعمارًا واتصالاً بالغير ونشرًا للخير.

ولما كان العطب النفسي يؤثر بالسلب على الإنتاج والإبداع البشري؛ كان من الواجب أن نبحث عن هذا الخلل وذلك العطب حتى نعالجه ونستأصله حتى تواصل النفس البشرية دورها الطبيعي في حياتها فتسعد نفسها، كما تكون سببًا في إسعاد من حولها بما أوتيت من قوة عقلية.

وفي هذه المجموعة القصصية للدكتورة والمعالجة النفسية (موزة عبد الله المالكي) نرى خلاصة تجربة حقيقة وواقعية ملموسة ومحسوسة ومؤثرة، كما أنها محيطة وشاملة، لذا كانت عالقة بالذهن، ولما كانت التجربة أهم خطوات التفكير العلمي جاءت المجموعة مستوحاة من فكر علمي وحيوي

متواصل يتواكب مع واقع الحياة التي عاشتها الدكتورة موزة المالكي تبحث فيها عن الطريقة المُثلى لسير أغوار البشر والتوصل إلى القلاقل التي تعطل وتعرقل سيرهم فتجعلهم يحيدون عن الطريق الصحيح إلى طرق أخرى وعرة المخاطر فيها صعوبة، لذا عملت جاهدة للتوصل والتعرف على خريطة النفس البشرية حتى توصلنا إلى بعض ما هو خفي فيها، ولكنه إن صحَّ كان مفتاحًا سحريًا للسير الصحيح في طريق الحياة.

على هذا الأساس صارت الكاتبة والمعالجة القديرة في هذه المجموعة تنتقل بنا من مرحلة إلى مرحلة ومن مكان إلى مكان ومن حالة إلى أخرى، ولما كان التنقل هو دليل الحيوية والنشاط والمتعة، جاءت القصص ممتعة في أسلوبها وعرضها وطريقتها ومنهجها.

ومن الحرية والاختيار بدأت، فكان في هذا حسن وبراعة استهلال فقد اختارت الإرشاد والمعالجة النفسية بعد تجربة واقعية ناجحة مع طالباتها مما يثبت أن الصحة النفسية للطالبات سببًا رئيسيًا في تقدم الحياة

ولما كان الاختيار دليل الحرية اختارت الدكتورة موزة المالكي بما أتيت من استعداد فطرى أن تسير في طريق البحث النفسي أملاً في منح النفوس البشرية حريتها لما للحرية مع السلامة النفسية أثرها في تقدم الفرد والمجتمع.

يجدر بنا أن نشير إلى أن التجارب التي علقت بذهن المعالجة القديرة ليست على نسق واحد، فهي شاملة لنماذج متعددة ومتباينة فيما بينها مما يشير إلى الذكاء والفطنة في العرض لما قد يعرو النفس البشرية من أعطاب نفسية، ففي التجارب والنماذج المعروضة بالمجموعة؛ نرى نماذج عمرية متباينة، كما نرى تباينًا في النوع البشرى، وتباينًا في البيئات والطبائع والانفعالات والحالات، فتارة مع الطفولة وتارة مع الرجولة وأخرى مع الشباب، كما تقربنا من الموت في أعمال مختلفة وتأخذنا إلى خضم الحياة. إنها صورة صادقة ووصف واقعي لطبيعة الحياة كما ترى التناقض في الطباع في مواجهة حالة واحدة ومؤثر نفسي واحد فنجدها كما في الحالة التي عرضتها لمريض الإيدز تنتقل من الصحة إلى الإعاقة، وغيرها من التناقضات الظاهرة في المجموعة.

إن هذه المجموعة بقصصها ونماذجها؛ إنما هي تجارب واقعية، صيغت بأسلوب أدبي مشوق وممتع.

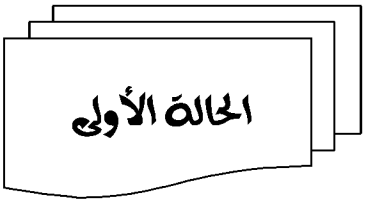

(ياما في السجن مظاليم!!)

حينما عملتُ لفترة كمعالجة نفسية بين أسوار السجن؛ سواءً في الولايات المتحدة الأمريكية أو قطر، فإنني عايشت تجارب إنسانية بالغة الغرابة، وإذا كان يقال في إحدى العاميات العربية " ياما في السجن مظاليم" فإن هذا المثل ينطبق تمامًا على الحالة التي سأرويها لكم:

الجريمة في هذه الحالة القتل، والمقتول زوجة ضُبطت متلبسة بالزنا، والقاتل؛ وفقًا لمجريات القضية؛ شقيقتاها.. والأمر هذا على نحو يدعو للغرابة، فكيف تقتل شقيقتان شقيقتهما، وما هي الدوافع التي استدعتهما إلى ارتكاب الجريمة؟.. السؤال كان بحجم اللغز الكبير..

الشقيقتان القاتلتان؛ وهما أجنبيتان من جنسية أسيوية؛ ليس في نفسيتهما ما يستدعي القناعة بارتكاب الجريمة.. وبدأت رحلة العلاج النفسي، كان من الطبيعي أن تتجرأ على تفاصيل حادثة القتل والمرجعيات النفسية التي استدعته وفقًا للحكم، غير أن أسئلتي المتتالية لم تؤدي إلى ما يقنعني بارتكابهما لهذه الجريمة البشعة.. إلى أن استطعت التوصل إلى الحقيقة.. فالقصة تبدأ بمشهد خيانة بين زوجة وعشيقها، وقد دخل ابن الزوجة البالغ من العمر سبعة عشر عامًا ليشهد هذا المشهد الذي أخرجه عن عقلانيته فحاول قتل الاثنين، ولكن العشيق استطاع الفرار، أما والدته فقد تلقت منه طلقات سقطت على

أثرها مدرجة بدمائها وسط صراخ الابن المذهول بجريمته التي قاده إليها غضبه المباغت.. حينئذٍ دخلت شقيقتا الزوجة ليشاركا الابن البالغ فظاعة المشهد، فكان عليهما أن يفعلا شيئًا، فما كان منهما إلا الاتفاق فيما بينهما على تحمل عبء الجريمة لإنقاذ ابن القتيلة من حُكمٍ قاسٍ كان سيقوده إلى حبل المشنقة وهو الحكم الذي يفرضه القانون على ابنٍ يقتل والدته.

توارت الحقيقة، ودخلت شقيقتان بريئتان السجن عوضًا عن ابن الشقيقة، وظلت هذه الجريمة متوارية حتى جلسات العلاج النفسي التي بدأتها معهما والتي أحاطت اللثام عن الحقيقة الغائبة، فقد اعترفت الشقيقة الصغرى أولاً، ثم تلتها الكبرى، وتأكدت وتطابقت معلوماتهما، وفي الواقع أنني ما كان بوسعي أن أعيد القضاء على مراجعة الحكم الصادر ضد هاتين البريئتين لسببين: أولهما أن الحكم بالسجن لكل منهما ما كان باقيًا منه إلا بضعة شهور، وثانيًا لأن السرية المطلوبة في العلاج النفسي مبدأ مهني قدسي لا يجب أن يُخدش إلا لأسباب معروفة للمعالجين، ولأسباب أخرى ستتضح من خلال القصتين اللتين استوحيتهما من هذه الحالة؛ الأولى على لسان الابن، والثانية على لسان الأختين.

لهذا قتلتها

أنا مستعدٌ أن أذهب الآن للاعتراف في مركز الشرطة بأنني أنا الذي قتلتها.. ولولا أن خالتي أقنعتني بأن ذلك لن يغير في الأمر شيئًا، وأن بصماتي كلها مُسحت عن المسدس، وأن لا بصمات على المسدس إلا تلك التي لخالتي.. أنا أعرف أن خالتي تعرف أنني أفديها بكل ما أملك.. لقد قالت لي إنها أولى بفعل ذلك مني، لأنها أختها، وهي تخشى العار على والديها، وأنها باعترافها بقتل أمي إنما ترد الشرف لأسرتها في البلد وتكون بذلك مثار فخر الجميع.. لهذا كله صمتُ..

وكل مرة أزور خالتَيّ في السجن؛ أشعر بفخرهما وسعادتهما، وأنهما تحباني أكثر من قبل..

كم كنتُ أحب أمي.. وكانت هي أمًا مثالية، كانت محبة لأهلها ولأسرتها.. كانت مكرسة لرفع ضنك الحياة عن والديها بالهند.. منذ صغري كنا نخرج سويًا أنا وأبي وأمي وخالتاي إلى السوق فيشترون لي جميل الثياب والألعاب، أو كانت تخرج مع أبي وأبقى مع خالتي بالبيت، وعندما يعودان يحضران لي ألعابًا جميلة وغالية الثمن، وكان أبي لا يبخل علينا بشيء، وكانت أمي تقتني من اللباس وكأنها بنت أحد الأمراء.

كنتُ طفلاً صغيرًا آخر مرة عندما زرنا الهند لم أكمل حينها التسع سنوات.. وقضينا هناك أجمل رحلة، كان جدي وجدتي وأخوالي في غاية السعادة بعودتنا، وكان أبي كريمًا مع الجميع وأصبحت أسرة جدي هي أسرة أبي.. جاء الجيران جميعًا للسلام علينا وتهنئة دار جدي بعودتنا، ولعل بعضهم كان يتمنى المجيء للخليج للعمل.. زرنا مناطق عديدة وتنقلنا في وسائل المواصلات المختلفة على طول الهند وعرضها.. وبعد رحلة كانت في غاية التمتع؛ عدنا إلى بيت جدي بعد تنقل دام أكثر من عشرة أيام.

وفي ليلة سمعت جدتي تتحدث مع أمي وقد ذهب الجميع للنوم وكنتُ أضع رأسي في حِجر جدتي بين نومٍ وصحو:

- لماذا يا ابنتي لا تحملين طفلاً آخر يكون أخًا أو أختًا لابنك؟؟

بعد تردد من قبل أمي.. سمعتها تقول:

- الرجل ليست فيه القوة الكافية.

- ماذا يعني ذلك؟

- يعني أنه لا يستطيع أن يأتي لفراشي إلا مرة كل عدة شهور !

- ألم يتعالج ويستخدم مقويات ؟؟

- لقد استخدمها بما فيه الكفاية، ولم يعد له القدرة على استخدامها.

- وكيف يتعامل معكِ في الحياة اليومية؟

- إنه رجل طيب وكريم ولا يبخل بشيء علي أو على ولدي أو أختَي الاثنتين، ولكني بدأت أضج منه ولا أتحمله.. إنه ينام بجواري كأنه خشبة باردة لا حرارة فيها فيما أنا لا زلت في عز شبابي وأنوثتي، إنني أحس أحيانًا بلهيب في جسدي أريد من يطفئه، أداعبه ولكن دون جدوى.

- إياكِ أن يشعر بقلقكِ من ذلك.. هل أحس بشيء؟

- أبدًا، إنني أحاول كل جهدي ألا يشعر، ولكني أتمزق واحترق.. هل تعرفين يا أمي إنني أصبحت لا أنام إلا بدواء منوم ؟!! أنا الآن لم أكمل الثلاثين وكل الرجال يشتهونني وهو فوق الخمسين من العمر، ولا يعير أهمية لحاجاتي.. حتى في أوائل أيام الزواج لم أكن أشعر بأن هذا الموضوع عنده ذي بال.. كل ما يهمه بشكل كبير هو العمل والعمل.. وأن يحضر لنا ما نشتهي وأكثر.

- إذن يا ابنتي اصبري، إنه رجل طيب وهو زوجك الآن وقد أسستما أسرة، وهو يوفر لكِ كل شيء، والفراش ليس كل شيء في حياة المرأة.. احذري إن تغاضبيه أو أن تشعريه بعجزه!!

- يا أمي حاولي أن تفهميني.. كلما خرجت معه إلى محل تجاري أو مطعم أو إلى مكان عام يلتفت الرجال إليَّ بدهشة وبإعجاب.. وقد سأله كثيرون هل هذه ابنتك يا سيد؟.. كان يضحك، وكنتُ أتمزق.. وذات مرة تقدم منا رجل في الثلاثين من عمره فتي وواضح الثراء في هيئته.. تقدم من زوجي ونحن جلوس إلى إحدى الطاولات في مطعم: سيدي هل تسمح لي أن أتقدم بخطبة

ابنتك.. ضحك زوجي وقال هذه زوجتي. فانصرف الرجل وهو مستغرب تمامًا.. فيما أنا أتلوى ألمًا وشبقًا.

لقد أحسست منذ ذلك اليوم أني في دائرة الخطر.. لماذا تتحدث أمي عن الرجال بإعجاب؟؟ لماذا تتحدث عن أبي باحتقار؟؟ لم أكن أستوعب ماذا تعني أمي تمامًا بكثير من كلامها غير الواضح. إلا إني أحسست بقشعريرة في بدني أصبحت على أثرها مريضًا.. سخونة بجسدي والعرق يرشح من جبيني وكل جسدي.. حملني أبي في حضنه وخرج مسرعًا إلى أقرب طبيب.. لم يجد شيئًا عضويًا بعد التشخيص.. فسأل إن كنت تعرضت لصدمة أو خوف من مشاهدة فيلم أو شيء ما؟ لم يكن أحد يعرف ما بي.. كنت أتمنى الموت..
ومنذ ذلك اليوم أحسستُ بقرف من أمي.

كانت خالتي الكبيرة قريبة إلى قلبي وكنت أقضي معها كل وقتي، كنت أنام معها في غرفتها.. وعندما رجعنا إلى بيتنا في الخليج حيث يعمل والدي أصبحت لا أحتمل الحديث مع أمي أو الجلوس إليها.. وعندما كنا نخرج معًا كنت دائم النظر إلى عينيها وأعين الناس.. كنت أحس بنار تكوي أضلعي.. كانت تمعن في إبراز جمالها.. لقد كانت فاتنة الجمال لا يبدو عليها أنها ابنة التسع والعشرين.. وكم تحدثت إليها صديقاتها عن

إعجاب فلان أو علان بها، وأن عمرها لا يصدقه أحد.. كانت في غاية السعادة عندما يأتي الحديث عن عمرها وكأنها ابنة العشرين.

مضت سنة دراسية كاملة شهدت تراجعي في المدرسة وأنا الذي كنت متفوقا على جميع أصدقائي.. أصبحت أكره كل شيء وأخشى من كل شيء.. أتمنى أن لا تخرج من البيت.. ولا أحب أن يزورنا أحد من أصدقاء أبي ويراها أو أن تراه.. أصبحت أتوجس في كل شيء تعمله.

وبدأت أحس بأن هناك أمرًا غير طبيعي.. أعود من المدرسة مع الساعة الثانية عشر ظهرًا وفي بعض الأحيان لا أجدها بالبيت.. اسأل خالاتي فيجبنني أنها ذهبت لشراء بعض الأشياء.. لم أكن أقتنع ما هي هذه الأشياء؟؟ إن أبي يحضر كل شيء.. ولماذا لم تخرج إحدى خالتَي؟ وعدت ذات يوم من المدرسة ولم أجدها فقلقت قلقًا شديدًا.. أين ذهبت؟ ووقفتُ على النافذة متبرمًا قلقًا وإذا بسيارة جيب همر تقف بالقرب من عمارتنا.. نزلت أمي منها ورفعت بيديها لصاحب السيارة تودعه ودلفت إلى العمارة مسرعة...

- أين كنتِ يا أماه ؟

- كنت بالسوق اشتري لك ملابس.. انظر ما أجملها.

- ولكني لست بحاجة لملابس !.

لم أقل لها إني رأيتك تنزلين من سيارة أمام العمارة!! ولكني كنت أغلي ألمًا ونارًا !!.

وبعد فترة من الزمن اشترى أبي لها سيارة فارهة؛ وقد ألحت عليه بشرائها.. وجعلت تتحرك بسيارتها كلما أرادت دونما مراعاة حتى لمواعيد عودة أبي من العمل، حيث كان لا يعود إلا متأخرًا فقد كان منهمكًا في توفير ما يكفي لرغباتنا وبالذات رغبات أمي فلقد عودها أن يشتري لها في كل مناسبة هدية من الحلي. ويسرف في إخراجنا للفسحة كل عطلة يغتنمها في إحدى الدول المجاورة.. أصبحت السيارة توفر لها الحركة كيفما شاءت.. لقد كنتُ أخبئ مفاتيحها ! فأصبحت تحذر مني !.

نادتني خالتي ذات صباح وقد رأت علي انفعالاً بالغًا لحظة خروج أمي.. أخذتني خالتي في حضنها.. تلعب بشعري وتقول لي: ما بك يا حبيب خالتك ؟

- أمي يا خالة، أمي...

- لا تقل شيئًا.. إنها أمك وهي محترمة، لا تسيء الظن فيها حبيبي.. إنها فقط تمل من البقاء في المنزل.. تخرج للترفيه عن نفسها.

- ولكنها يا خالتي تخرج بكامل زينتها.. لماذا تبالغ في التزين؟؟

- إنها فقط تريد أن تخرج من جو الروتين.. لا تقلق يا حبيبي!!

لا تزال كلماتها لجدتي يوم كنا هناك بالهند تقرع في أذني وتكبر.. أمي غير مقتنعة بأبي!! أمي لا تعيرنا اهتمامًا في البيت.. خالتاي تقومان بعمل كل شيء من أشغال البيت واحتياجاتي واحتياجات أبي.. وشيئًا فشيئًا لم يعد لأبي اهتمام من قبل أمي التي كانت لا تحب الاجتماع معه.. يعود مع المغرب أو قبله بقليل.. فتدخل غرفتها وتتعلل بالنوم.. وعندما يدخل للنوم تخرج للجلوس بالصالون تتنقل مع محطات التليفزيون.. وكثيرًا ما كانت تأتيها مكالمات مع منتصف الليل.. فتنزوي جانبًا في المطبخ وتمكث هناك وقتًا طويلاً.

بدأت أمي في ممارسة سلوك جديد.. قبل أن يُقرع الباب بدقائق قليلة قالت لخالتي إن صديقًا سيجيء لزيارتنا وهو رجل أعمال كبير ويريد أن يوفر لي فرصة عمل محترمة في شركته. وأشارت على خالتي بأن تأخذني إلى غرفتها لأنه على وشك الوصول..
قرع الباب فانصرفت خالتي تمسك بي بيديها.. مكث الرجل وقتًا ليس قصيرًا.. كانت أمي قد لبست من أرقى ثيابها المنزلية والتي لا أراها تلبسها في حضور أبي.. كانت قد رتبت شعرها جيدًا ورائحة العطور الباريسية تعبق البيت.. صوت إغلاق الباب.. خرجنا أنا وخالتاي.. كل شيء في شكل أمي تغير.. شعرها مبعثر ووجهها كأنها شيطانة.. ما بكِ يا أمي.. لا شيء. وأسرعت إلى الحمام.

تكررت زيارات هذا الرجل بمعدل مرتين كل أسبوع.. وفي كل مرة تتكرر المشاهد نفسها.

في يوم عاد أبي مبكرًا، وكنت أجلس بالقرب منه.. سألته: أبي أنت رجل عندك مال كثير ألا تخشى اللصوص؟.. فأجابني: لا يا ولدي فلدي مسدس.. ألححتُ على رؤيته وأن يعرفني كيف يستخدمه لو اقترب منه لص، فأخرجه من صندوق وبدأ يشرح لي.. وقال لي: إياك أن تصوب المسدس إلى رأس اللص.. صوب مسدسك للسماء فيهرب اللص..
فاضمرتُ في نفسي أمرًا، وعزمتُ ألا يكون المسدس إلا مصوبًا لرأسها.

وفي مرة جاء الرجل.. وكالعادة أدخلتني خالتي غرفتها.. ولكنها نسيت أن تغلق الباب بالمفتاح.. بعد دقائق قليلة كنتُ أسمع عن بُعد صوتًا يشبه الهمس.. أسرعتُ وفتحت باب غرفتنا واندفعت نحو غرفتها فوجدتها بدون ملابس في حضن ذلك الرجل صرخت من أعماق قلبي: أمي، أمي.. ما هذا؟؟!!!..
وأغمي علي وسقطتُ أرضًا.

أفقتُ من غيبوبتي ووجدت نفسي بحضنها.. تبكي وتبكي بمرارة: سامحني يا ولدي، سامحني.
لم أستطع النطق.. لم أستطع الكلام.. وبقيتُ في هذه الحال ثلاثة أيام. سأل والدي عن السبب، فلم يصارحه أحد بحقيقة ما جرى!.

حتى جاءت خالتي الكبيرة وقالت لي إنها ستعاهدك أن لا تعود لذلك أبدًا..

جاءت وهي منكسة رأسها وقالت لي: ولدي أنت تعرف إني أحبك وأنت كل شيء في دنياي.. أعاهدك أن لا أعود يا ولدي لأي تصرف يسيء إليك وإلى أسرتي وأهلي.. إنني يا ولدي مخطئة وأريد الغفران والتوبة.

لم أكن أتكلم.. لم أرد عليها بكلمة.

- تكلم يا ولدي.. قل أي شيء.

حينها نطقت بكلمات محددة قلت: في المرة القادمة سوف أقتلك.

مضت أيام هادئة، وظننت أن الأمور أخذت طريقها إلى التوبة وعاد الاستقرار إلى بيتنا، وبدأت أمي تهتم بواجباتها نحونا.. كان أبي المسكين لا يعرف شيئًا مما يحصل، وكان هذا يمزقني.. كنت أحبه، ولكني كنت أكره فيه ثقته الكبيرة بأمي وإنفاقه المبالغ فيه عليها.

المهم أنني بدأتُ أستعيد بعضًا من ثقتي بأمي..

حتى جاء ذاك المساء القاسي؛ عندما رنَّ تليفونها، لم تكن تعرف أني بجوار غرفتها.. تسمعتُ لكلماتها وهي تقول: لا.. لا.. لا أستطيع أن أخرج من البيت، ابني في حالة سيئة.. لذلك لا أستطيع.. وبعد كلام كثير.. قالت له: طيب.. غدًا الساعة الحادية عشر ونصف انتظرك في البيت بعد أن أكون أخرجتهم إلى

المطعم وأعود فورًا انتظرك ولكن لن تبقَ طويلاً عندي؛ فقط نصف ساعة أو أقل.

حينها انتظرت عودة أبي.. ومكثت معه، واستطعتُ أن أسرق مفتاح خزنته وأخذت المسدس وأغلقتها، وأرجعت مفاتيحه مكانها.. وقررت قتلها متلبسة.

مضت الساعات ثقيلة ولكنها حاسمة.. كنت مرتاحًا لما سأقدم عليه..

وفي الصباح خرجنا جميعًا إلى التسوق، ودخلنا مطعمًا أنيقًا لكنها سريعًا اعتذرت لأنها تريد إحضار شيء نسيته بالبيت وطلبت منا الانتظار دقائق قليلة.. ولكني تعللت بمرض في معدتي وأصريت على العودة للبيت...

وعندما فتحنا الباب؛ وجدت ذلك الرجل هو وأمي في حالة معيبة فأسرعت إلى حيث المسدس.. وفرغت شحنته برأسها ورقبتها وصدرها..

أنا قاتلها.. وأنا مستعد أن أذهب للشرطة لاعترف...

ولكني لن أعترف من أجل خالتي.

ليبقى سالم سالمًا

كان أمرًا غير منطقي ويرفض العقل تصديقه، ولو رآه المرء في السينما أو في مسلسل تلفزيوني لقال: هذه من شطحات خيال المؤلف. لم تستطع الشرطة التوصل إلى نتيجة حاسمة تحدد القاتل الفعلي، ولم تستطع المحكمة بالتالي الحكم على القاتل وإطلاق سراح البريء، بينما القاتل الحقيقي لم يستمع أحدٌ إليه، ولم يتقدم للإدلاء بإفادته، ولكنه على استعداد لفعل ذلك.

صبيتان ادعت كل منهما أمام الشرطة وأكدت أقوالها في المحكمة، أنها قتلت أختها الكبيرة، ولم تتزحزح أي منهما عن اعترافاتها، بل كررتها مرة بعد مرة، وكأنها درسٌ حفظته جيدًا. حتى التفاصيل الدقيقة لم تتغير، وهذا ما جعل الشرطة في حيرة، ولم يكن أمام القاضي في قضية بهذا الوضوح، ومع وجود الظروف المخففة؛ إلا أن يحكم عليهما معًا بخمسة عشر عامًا مقسمة على الاثنتين، أي سبع سنوات ونصف لكل واحدة وكانتا على وشك مغادرة السجن بعد أن قضتا فيه خمس سنوات، وتقرر الإفراج عنهما لحسن سلوكهما في السجن.

لم يكن هناك مريض يحتاج علاجًا نفسيًا، لكن المُعالِجة النفسية عندما اطلعت على ملفهما أرادت أن تحصل على الحقيقة، لا لفضحها، فالسرية أساس عمل المعالج النفسي، ولكن لمساعدة هاتين الصبيتين اللتين أحست المعالجة بثقل ذلك السر الذي تخفيانه وراء تلك الأقنعة التي ترتديانها طوال الوقت.

- سنحكي لكِ كل شيء.. سنقول الحقيقة أمامك فقط، ولكن دون تسجيل أو تصوير وفي مكتبك وليس أمام أحد آخر، وإذا قلتِ هذا الكلام لأحد فإننا سننكره جملة وتفصيلاً، ونعود إلى قصتنا الدائمة. نحن نثق بكِ، ولولا هذه الثقة لما قلنا لك هذا السر.

- أنتما لستما من هنا.. أنتما من..... أليس كذلك؟

- لا.. نحن لا نحمل جنسية هذه البلاد، ولكننا بالفعل نحس بالانتماء لهذا البلد... وعلاقتنا بموطننا الأصلي ليست أكثر من مجرد زيارات سنوية، وقد لا تكون كل سنة، وتكون لمجرد زيارة الأهل هناك وأخذ الهدايا لهم.

- كيف جئتما إلى هنا؟

- جئنا مع أختنا الكبيرة بعد أن تزوجت أحد رجال الأعمال الأغنياء هنا، وأحضرتنا لنعيش معها هنا منذ طفولتنا، وهنا تعلمنا ودرسنا، إلا تلاحظين أننا نتحدث لغة هذه البلاد، كما أننا نتقن اللهجة كأهلها تمامًا.

- هذا صحيح! فلا يمكن التفريق بينكما وبين أهل البلاد، حتى صار شكلكما مثل أشكال أهل البلاد.

- نحن سعيدتان بهذا، والجميع في المدرسة يعتقد هذا.
- عندما أتحدث عنكما، ما الاسمان اللذان تقترحان أن أطلقهما عليكما؟
قالت الكبرى:
- أريد أن تطلقي علي اسم زينب.
وقالت الصغرى:
- وأنا أحب اسم عائشة.
عادت الكبرى إلى الحديث:
- أما أختي القتيلة لعنها الله، فأطلقي عليها اسم "جميلة".. فقد كانت جميلة بحق، بل فاتنة الجمال، سنريك صورها عندما نخرج من السجن إن شاء الله، وستجدين أنها لا يليق بها إلا اسم جميلة.

لم يكن الأب من أصحاب الدخول الكبيرة، إذ إنه لم يكمل تعليمه، وقبل بأعمال لا يقبل بها أبناء بلده. تزوج وأنجبت زوجته خمسة أولاد هما ثلاث بنات وولدان، وشاءت إرادة الله أن تأتي البنات أولاً، حتى إن ابنه الأكبر لا يزيد إلا شهورًا عن ابن أخته، فقد انقطعت الأم عن الإنجاب عدة سنوات فكبرت البنات، وتزوجت الكبرى، والأم لا تنجب، والأطباء يقولون هذه إرادة الله، وشاءت الأقدار أن تحمل الأم قبل ابنتها بشهور، ثم حملت الأم مرة ثانية، وأنجبت ولدًا أيضًا، وأنجبت جميلة ابنتين بعد ابنها البكر سالم.

قالت زينب:

ذات يوم لا أنساه كنا قد أنهينا للتو عشاءنا البسيط عندما قرع باب البيت، فتح أبي الباب، وسمعناه يرحب بحرارة بالزائر، ثم طلب من أمي ونحن البنات الثلاث أن ندخل إلى إحدى الغرف. هذا أمر مضحك، فالشقة التي كنا نعيش بها لم يكن فيها إلا غرفتا نوم وصالة.. ذهبنا إلى إحدى غرفتي النوم، ودخل الضيف، وأخذنا نسترق السمع والنظر لنراه، وعرفناه، فقد كان صديقًا قديمًا لأبي من أيام المدرسة، إلا أنه أكمل تعليمه، وورث من أبيه مبلغًا، وحصل على عقد عمل في هذا البلد، وأصبح من رجال الأعمال هنا، ولكنه ظل محافظًا على صداقاته القديمة، فكان يزورنا بين الفينة والأخرى، ويحمل معه الهدايا. وفي ذلك اليوم جاء سائقه وراءه وهو يحمل صناديق من الهدايا لأبي ولأمي ولنا جميعًا وكلها هدايا قيمة. ثم سمعنا أبي ينادي أمي. أصلحت أمي هندامها قليلاً، وخرجت. وتساءلنا نحن البنات الثلاث عن الأمر، هذه أول مرة يطلب فيها أبي من أمي أن تقابل أحد ضيوفه، وبالذات هذا الضيف. سمعنا صوت أمي تقول: إذا كان هذا رأيك، فإن الرأي الأخير لجميلة. وسمعنا صوت أبي مرة أخرى ينادي جميلة. واقتربنا أكثر، واختبأنا وراء الباب أنا وعائشة لنسمع الحوار.

قال أبي: يا جميلة يا ابنتي- صديقي محسن طلب يدك للزواج وهو كما تعلمين رجل ميسور ومتعلم وابن أصل ويعمل في وظيفة محترمة، وقد وافقت. فما رأيك أنت؟

قالت جميلة: الرأي رأيك يا أبي.

قال أبي: حسنًا. أرجو أن تعطينا مهلة يومين، وسنرد لك الجواب يا محسن.

فرح السيد محسن واستأذن وخرج.

بكت أمي، وقالت لجميلة:

- يا ابنتي.. لا تظلمي نفسك.. السيد محسن غني ومتعلم، ولكنه تجاوز الأربعين، وأنت لم تبلغي العشرين بعد، لا تتسرعي، سنوفر لك كل ما تحتاجينه وسنزوجك بشاب لا يكبرك كثيرًا، قد لا يكون غنيًا، ولكنه سيصير في المستقبل، ولكن انتظري فقد تجدين من تحبين ويحبك.

ولكن جميلة كانت قد حسمت أمرها.

- هذه هي الزيجة التي كنت أشتهيها، وأستطيع أن أساعدكم لتتجاوزوا هذه الحياة الصعبة التي تعيشونها.

تذكرتُ تلك الليلة عندما رأيت أختي تخرج من البيت، وتصعد إلى سيارة فارهة كانت تنتظرها بالقرب من الفيلا التي كنا نسكنها، قلت لنفسي: بهذا تجازين يا جميلة زوجك الكريم الذي قبلت به بمحض إرادتك، بل وبإصرار؟

قالت جميلة:

- لا يا أمي.. هذه ضربة حظ لا تتكرر مرتين.. أنا أقبل بالسيد محسن زوجًا، ولا أريد غيره. إنه محترم وميسور الحال وكريم، وهكذا أعيش حياة الرفاهية التي كنت أحلم بها وأتمتع بكل الأشياء.

نفذت جميلة كل ما وعدت به، وحقق لها زوجها كل ما كانت تتمناه وتشتهيه، وكما قالت يوم طلب يدها عاشت حياة الرفاهية، وأغدقت علينا، وقد كان زوجها كريمًا جدًا، لم يمنعها من إعطائنا كل ما تريد جميلة، عادت لنا أول سنة من الخليج محملة بالهدايا الثمينة، وكانت تقنع زوجها بإرسال نقود لنا في الهند تكفي معيشتنا، وقد غيرت بالفعل من نمط حياتنا وبدأنا نتعرف على أشياء في الدنيا لم نكن نتذوقها من قبل، واشترت لنا بيتًا أكبر في بلدنا.

وفي إحدى زيارتها لنا إلى الوطن ويا ليتها لم تكن تلك الزيارة قالت لأبي:

- ما رأيك يا أبي أن تأتي زينب وعائشة لتعيشا معي في الخليج؟

فوجئ أبي وأمي بهذا الاقتراح. قال أبي:

- ولكن يا ابنتي، زوجك رجل كريم، ولكن لا يجوز أن نتجاوز حدودنا ونثقل عليه أكثر.

قالت جميلة متحمسة:

- العكس يا أبي، لقد شجعني على هذا عندما اقترحت عليه، وتمنى أن توافق أختاي وأن توافق أنت وأمي.

قالت أمي:

- ولكن يا ابنتي، الرجل يحب أن يأخذ راحته في بيته مع زوجته، ووجود أختيك معك سيقيد حريته.

ردت جميلة وصمتها مليء بالرجاء وكأنها أعدت لكل سؤال جواب:

- لا بأس يا أمي.. الفيلا كبيرة، والغرف كثيرة، وأنا أشعر بالملل وحدي، وأفتقد أخواتي كثيرًا، ولا تقلقا، سنأتي لزيارتكم إذا أردتم مرتين في السنة، وهناك ستذهبان إلى أفضل المدارس وستتعلمان اللغة العربية وستحفظان القرآن، ووقتها ستكون فرصتهما في الحصول على أفضل الفرص في الزواج متاحة.

وانتقلنا إلى هنا للعيش معها، في بيتها، وكان ابنها سالم حياتنا كلها، فما أن نرجع من المدرسة حتى نسرع إليه، نلاعبه ونلاطفه، ويحكي لنا ما جرى معه في يومه، والأفلام التي شاهدها في التلفزيون، ويعرض علينا المجلات والألعاب الغالية والمسلية التي أحضرها له أبوه.

وعندما ذهب إلى المدرسة، كان البيت كله مشغولاً بذلك الحدث العظيم، وصار لدى سالم حكايات وحكايات عن مدرسته ورفاقه

ودروسه وماذا تعلم وماذا حدث من مواقف مع رفاقه ومدرسيه وهكذا، وكان شعلة من الذكاء.

وتعلق سالم بنا كثيرًا، خاصة أنه لا يرى أباه كثيرًا، وقد يمر اليوم واليومان دون أن يراه، فالأب يرجع متأخرًا، ويخرج بعد أن يذهب سالم إلى المدرسة، فإذا لم يعد الأب إلى الغداء فإنه قد لا يرى سالم إلا بعد يومين.

ووجدت جميلة وقت فراغ كبيرًا، ولم تكن من هواة القراءة والإطلاع، بل كان أقصى ما تقرؤه بعض المجلات النسائية المليئة بالإعلانات والصور وأخبار الفن والفنانين، وانتسبت إلى أحد النوادي، وصارت تمارس الرياضة بانتظام!

- أريد أن أحافظ على رشاقة جسمي.

وصارت لها شلة من الصديقات، وتذهب إلى هذه في "الصباحية" وتذهب إلى بيت هذه في العصر، لكنها كانت تشجع زوجها على القيام بزيارات عائلية إلى بيوت أصدقائه، أو استقبالهم في بيته. وفي النهار لم يكن أحد منا يعلم إلى أين تذهب، حتى رأت زينب ذلك المنظر.

عادت زينب إلى الحديث:

- كان من الصعب أن أحتفظ بالسر لنفسي، فحفظ الأسرار قاتل، الأسرار جبال، لذلك لم أجد أمامي إلا عائشة أخبرها بما رأيت.

قالت عائشة:

- لم أصدقها في البداية، أو ربما شيء في داخلي رفض التصديق، وتمنيت لو أن زينب تتخيل، أو تحلم، ولكن صدقت عندما رأيت بعيني وتساءلنا معًا ماذا نفعل؟

وصار الحديث متبادلاً، كل منهما تكمل ما تقوله الأخرى:

- استرجعنا الماضي القريب كله، منذ انتقلنا للعيش معها تاركين الفقر وضيق العيش في بلدنا.

- كنا في منتهى السعادة، لولا بعض لحظات الحنين للأهل التي تطفئها وجود أسرة بديلة ووجود سالم الحبيب، والاتصال التلفوني الدائم بالأهل هناك.

- ولكن بدأ الشك بمشاوير جميلة المشبوهة.

- ما الذي يجعلنا نصدق بعد الآن أنها ذاهبة إلى النادي أو لزيارة إحدى صديقاتها؟

- لماذا لا يكون ذهابها إلى عشيقها ونحن نحسبها تحافظ على رشاقتها؟

قالت المعالجة النفسية:

- لماذا لم تواجهاها في تلك الفترة؟ ربما كانت سترتدع وتمتنع عن مقابلة عشيقها.

- لا أدري!

- لقد كان موقفًا جبانًا منا.

ـ لكننا خفنا على أبينا وأمنا وعلى طفلها سالم. وما الفائدة؟ ستكذبنا، وسيصدقها زوجها وأبي وأمي وسنكون نحن كاذبتين، وسنخسر كل شيء.

قالت المعالجة:

ـ إذن كانت المسألة مسألة الخوف من الخسارة؟ خسارة حياة الرفاهية التي كنتم تعيشانها؟

ـ قد يكون هذا سببًا مهمًا، ولكن أيضًا الخوف على سالم، لقد كنا نخاف عليه من نسمة الهواء.

ـ هناك سبب آخر دكتورة... نحن تعلمنا منذ صغرنا أن يحترم الصغير الكبير، لا تنسي أن فارق العمر الذي بيننا وبين جميلة، فلم ترزق أمي بنا إلا بعد أكثر من عشر سنوات بعد أن أنجبت جميلة. كما أن زواجها بالأستاذ محسن أعطاها ميزات إضافية، صارت المتفضلة على الأسرة كلها. جعلتنا نعيش حياة لم نكن نحلم بها، صرنا إذا ذهبنا في زيارة إلى أهلنا نذهب محملين بالهدايا ونتجول في البلاد كالسائحين، وصار أبي شخصية معروفة في قريته، بل أنه ساعد بعض أهلها.

ـ كل هذا بأموال ذلك الرجل الطيب الكريم. لقد أغدق عليها وعلينا، فكان جزاؤه أن تخونه، وتلحق بنا العار. إنه أكبر منها، لكنها كانت تعرف هذا، وقد أصرت على الزواج به.

قالت المعالجة:

- وماذا فعلتما؟

- لم نفعل شيئًا، بل ساهمنا بجبننا في استمرارها في الخيانة وتماديها فيها.

- كيف؟

- كان زوجها يأتي أحيانًا إلى البيت في غيابها، فهو ليس موظفًا، وكان يسألنا إلى أين ذهبت؟ وكنا نضطر لاختراع قصة، وفي معظم الأحيان نقول إننا لا نعرف، وعندما تأتي أو عندما يعود في المساء تخترع له قصة ويصدقها، لقد كان طيبًا وكريمًا يثق بزوجته ويحبها، خاصة بعد أن أنجبت له ابنه سالم.

- لكن وقاحتها زادت.

- كيف؟

- صارت تستقبل عشيقها في بيتها، بيت الرجل الكريم الطيب.

- ألم تخش وجودكما؟

- يبدو أنها كانت مطمئنة إلى أنها تحكم سيطرتها علينا بأموال زوجها. ولا أدري ما الذي تغير، ولماذا لم تعد تذهب إليه وصار يأتي إليها. ربما ليس لديه بيت مستقل، ربما غيرت عشيقها.

- قرأت مرة أن بعض العشاق يشتهون المرأة أكثر وهي على سرير زوجها!

قالت زينب:

- ذات يوم نادتني جميلة: زينب.. اذهبي أنت وعائشة إلى الداخل وخذا سالم معكما، هناك ضيف سوف يأتي.

قالت المعالجة:

- حتى في تلك اللحظة لم تواجهيها؟

- كما قلت لكِ دكتورة من قبل، كنا خائفتين من أشياء كثيرة وعلى أشياء كثيرة، أعرف أنني كان يجب أن أسألها عن هذا الضيف، ولماذا يأتي الآن في غياب زوجها، ولكنني لم أجرؤ على السؤال.

بعد قليل دخل رجل، ولكنه لم يجلس في المجلس، بل ذهب إلى غرفة نومها، وبعد نحو ساعة سمعنا إغلاق الباب الخارجي، فأدركنا أن الرجل خرج، وخرجنا من غرفتنا، كانت جميلة قد تبعثر شعرها وصارت بحاجة إلى إصلاح مكياجها.

عادت إلى غرفتها، فاستحمت، وأصلحت مكياجها قليلاً وارتدت ملابس منزلية وانتظرت زوجها.

قالت المعالجة النفسية:

- كم كان عمر سالم في تلك الفترة؟

- كان يقترب من إتمام التاسعة من عمره.

- ألم تقدر أنه صار يفهم وأنه من الصعب إقناعه بأي شيء؟

- كان ما يزال طفلاً.

- ذات يوم طلبتْ أن آخذه إلى غرفتي كالعادة، وأصر سالم على البقاء معها، وأخذت تحدثه بكل حنان الأم: سالم يا حبيبي، هذا

صديق أبوك، وهو رجل مهم في البلد، وقد طلبت منه أن يبحث لي عن عمل فوافق.

قال سالم:

- لكنكِ لستِ بحجة للعمل، فأبي يملك كثيرًا من المال.

- أعرف هذا، وهو لا يقصر معي، ولكن وقت الفراغ طويل، لماذا لا أعمل في الوقت الذي أنت في المدرسة لأملأ وقت الفراغ؟ سأشتري لك كل ما تريد.. حتى إنني سأضع نصف راتبي في البنك باسمك، وعندما تكبر ستجد عندك رصيدًا ضخمًا تبدأ به مشروعًا تجاريًا كبيرًا إن شاء الله.

قالت المعالجة:

- وهل صدقها؟

- لم يصدقها،ولكنه كان مجبرًا على تنفيذ أوامرها. قال لي:

- خالتي أنت تعرفين الحقيقة، فلماذا تخفينها عني؟

- الحقيقة كما قالتها أمك.

- لا يا خالتي، هذا ليس صديق أبي، ولو كان صديق أبي لأتى معه أو أتى عندما يكون أبي في البيت، وسيكون أبي في انتظاره.

- لقد قالت أمك، إنها تريد مفاجأة أبيك، وإذا عرف بالأمر لن يوافق.

- لماذا تدخل معه إلى غرفة أبي؟

- ربما تظن أن المكان هناك أهدأ، على كل حال ليس هذا أمرًا عظيمًا،أنا سأحدث أمك فإذا كانت تريد العمل، فإن أباك سيجد لها وظيفة.

قالت المعالجة:

- هل اقتنع؟

- ظللت أحادثه وأحاوره، ثم بدأت ألاعبه حتى شغلته عن الموضوع أو هكذا تخيلت.

- وكيف حدثت الجريمة؟

قالت عائشة بسرعة:

- نحن لا نسميها جريمة!!! بل بالعكس.. نحن نفتخر بما فعلناه، لقد غسلنا عارنا وعار أبينا وأمنا وأخوينا وعار الرجل الطيب الذي أكرمنا وكان رائعًا معنا.

قالت المعالجة:

- ماذا نسميها إذن؟ الحادثة؟

- يمكنك تسميتها هكذا! قالت زينب.

- في ذلك اليوم كان زوج أختي منهمكًا كعادته في العمل. اتصلت به جميلة وقالت إنها ستخرج وسنخرج معها نحن وسالم للغداء خارج البيت، وسنشتري بعض الهدايا لأننا كنا على وشك السفر للبلد. خرجنا لأحد المولات. واشترينا بعض الهدايا، ثم قالت جميلة: ألستم جائعين؟ تعالوا نجلس في هذا المطعم، نتناول بعض الطعام.

وما إن جلسنا وقبل أن نطلب قائمة الطعام، قامت جميلة قائلة: اطلبوا لي على ذوقكم، نسيت شيئًا مهمًا في المنزل، سأذهب لأحضره وأعود حالاً. انتظروني هنا. لا تغيروا المكان.

قالت عائشة:

- انطلقتْ بسرعة إلى سيارتها... صحيح، لم نخبركِ بأن زوجها كان قد اشترى لها سيارة سبور أخر موديل قبل الحادثة بأسابيع، واختفت عن أعيننا قبل حتى أن نرد عليها.

- بعد دقائق وقبل أن نعطي الطلب وضع سالم يده على بطنه وأخذ يتوجع: آخ بطني.

- أصابنا الهلع: ما بك حبيبي؟

- لا أدري! مغص يمزق أمعائي.

- هيا نأخذك إلى المستشفى أو إلى المركز الصحي. ربما في المول عيادة أو طبيب، ربما نأخذك إلى الطبيب في الصيدلية على أقل تقدير يوصف لك دواء يخفف عنك هذا المغص المفاجئ.

- لا، لا أريد، خذوني إلى البيت.

- انتظر أمك يا حبيبي، قالت ستأتي بعد قليل.

- لا أستطيع الانتظار.. لا تقلقوها علي، خذوني لها.

وأخذنا سيارة أجرة بسرعة، وما أن فتحنا الباب ودخلنا حتى انتصب سالم واقفًا كأنه لم يكن يتوجع قبل لحظات، وانطلق

بسرعة الفهد إلى مكتب أبيه. أصابنا الذهول بما يشبه الشلل، فتسمرنا في مكاننا، خرج من المكتب يحمل مسدسًا. صرخنا معًا: ما هذا يا سالم؟ لم يجب، اندفع إلى غرفة نوم أمه، وفتح الباب بقوة، واندفعنا وراءه، كانت جميلة عارية في حضن عشيقها. تناول الرجل ملابسه بسرعة وقفز من الشباك إلى الحديقة، ربما أصيب بكسور، لا ندري، فلم يكن هذا ما يهمنا في تلك اللحظة، تجمدت جميلة في السرير مرعوبة حتى إنها لم تهتم لأن تغطي جسدها، كان الخوف يطل من عينيها، صرخت قائلة:

- سالم حبيبي!

لكن سالم كان قد أفرغ رصاصات من المسدس في جسدها أصابتها واحدة في صدرها، وأخرى في رقبتها. ثم توقف لاهثًا:

- لقد قتلتها.. وهذا دمها النجس يلوث سرير أبي الذي طالما خانته عليه.

كان يجب أن نتصرف بسرعة، قد يكون الجيران سمعوا طلقات المسدس وستأتي الشرطة، مع أن الفيلا كبيرة جدًا، وقد يأتي أبوه. أخذت المسدس من يده وقلت: اسمع يا سالم.. أنت لم تقتلها.. أنا قتلتها.. سنلبسها ملابسها قبل أن تأتي الشرطة، أنا قتلتها بعد شجار بيني وبينها لأنها تريد أن ترجعنا إلى البلد، ونحن لا نريد أن نعود لأنهم يريدون تزويجنا بمن لا نريد هناك.

إذا سألك أحد من الشرطة فقل هكذا يا حبيبي، لا تفضح والدك، هل تفهمني، لا تفضح والدك..

مسحت البصمات كلها عن المسدس كما أراهم يفعلون في الأفلام، وأمسكت المسدس بقوة، ثم وضعته على الطاولة، واتصلت بالشرطة.

- حدثت جريمة في هذا العنوان.

ردَّ علي الضابط الذي جاوبني بنبرة عدم تصديق:

- ماذا تقولين؟

- كما أقول لك، لقد قتلت أختي رميًا بالرصاص، أرجو أن تأتوا لمعاينة المكان واتخاذ الإجراءات.

وأعطيته العنوان، وبعد دقائق دوت صفارة سيارة الشرطة في الحي، وتجمع الجيران.

أكملت أختها الحديث:

- رأيتها تضع المسدس على الطاولة.. فكرت بسرعة "ما ذنب زينب لتتحمل العقاب؟ إنها أكبر مني، وستكون قريبًا عروسة جميلة، أما أنا فما زلت صغيرة ويمكنني أن أدخل السجن وأخرج صبية". وعندما دخلت الشرطة، أمسكت بالمسدس، وقبل أن يسأل الضابط أي سؤال قلت: "لقد قتلت أختي"، صرخت زينب: أنتِ كاذبة، أنا التي قتلتها، قلت: بل أنا.. وها هي بصماتي على المسدس، وما زال في يدي.

احتار الضابط وأفراد الدورية، صبيتان تتنافسان على ارتكاب جريمة، عاينوا المكان، وصورا غرفة النوم، والجثة فوق السرير، وطلبوا منهما تمثيل الجريمة، واتفقنا على أن زينب أطلقت الطلقة الأولى ثم انهارت، ولكن عائشة قضت عليها بالطلقة الثانية، فنحن لا نريد العودة أبدًا إلى بلدنا، وأن السجن هنا أرحم من السفر، فالذكريات هناك مُرة، ومجرد فكرة السفر تؤرقنا، وأن أختنا كانت مصرة في الأيام الأخيرة على إعادتنا تحت إصرار والدنا ليزوجنا بمن يريد.

وبعد ذلك بقليل جاء الطبيب الشرعي، وأخذ المسدس واعتقلونا.

أكملت زينب:

- في المحكمة أصرينا على أقوالنا، وتنازل زوج أختي عن حقه الشخصي، وتنازل أبي وأمي عن حقهما. وحُكم علينا بسبع سنوات لكل واحدة منا، قضينا منها خمس سنوات إلى الآن، ولكن سنخرج عما قريب إن شاء الله لحسن السيرة والسلوك.

قالت المعالجة النفسية:

- وأنا سأعمل كل جهدي أن تخرجوا بأسرع وقت.

أضافت عائشة:

- في المحكمة، لم يكن يشغلنا إلا أمر واحد، أن نبعد الخطر عن سالم، وأن يظل بعيدًا عن القصة كلها، وعندما صدر الحكم، كانت فرحتنا كبيرة.

- سأخبرك عن حديث دار بيني وبين جميلة ذات يوم، كنا نشاهد مسلسل وكانت البطلة تخون زوجها مع رجل آخر، حيث علقت على الموضوع لأعرف رأيها، وقد يكون لرأيي دور في تغيير موقفها، أذكر أنها قالت يومها: اسمعي يا زينب، ربما لا توافقيني الرأي، ولكن قد تُجبر المرأة أحيانًا على خيانة زوجها.

- وما الذي يجبر المرأة على وجود رجل آخر في حياتها غير زوجها؟

- زوجها نفسه!

- زوجها! هل أنتِ مجنونة؟ هل يدفع الزوج زوجته لخيانته؟ هل تريدين مني تصديق هذا الكلام؟

- لا يدفعها بمعنى يأمرها بالخروج مع رجل آخر.. لكنه بتصرفاته يفعل هذا.. تصبح العلاقة بينهما فاترة، يصبح الزوج وكأنه مصنوع من الخشب أو الرخام بجانب زوجته، لا يشعر بجسدها الملتهب، المرأة تريد رجلاً بجانبها يا زينب.

- إذن لماذا لا تطلب المرأة الطلاق عندما تصل إلى هذه المرحلة مع زوجها وتتزوج من تحب؟

- هناك الكثير من الاعتبارات التي تحكم النساء: الظروف، الأولاد، الأسرة والمجتمع.

- إذن لماذا لا تصبر المرأة من أجل كل هذا؟ ألا يستحق الأطفال أن تضحي الأم من أجلهم بعلاقات محرمة عابرة تجلب العار لها ولأسرتها؟

- ولماذا لا تجمع المرأة بين الأمرين؟ عندما تتزوجين ستعرفين معنى أن يكون في حياتك رجل يفجر أنوثتك يا زينب، وستعرفين أن أموال الدنيا كلها لا تساوي لحظات تعيشينها مع رجل يحبك وتحبينه.

- لكن الخيانة حرام، وقد يكتشف الزوج وتكون الكارثة.

وصمتت زينب ودمعة على خدها، وهذه أول مرة أرى دمعة على خد زينب، وبالنسبة لي هذه علامة صحية لأنني كنت أتمنى أن تبكي زينب وعائشة أختهما، فهناك حزن دفين لم يتعاملا معه، وأنكراه أمام الناس والأخطر أمام أنفسهما، وكانت تلك الجلسة من أنجح الجلسات في نظري، لأن عائشة أيضًا انخرطت في بكاء يقطع القلب عندما سمعت كلام زينب ورأت دموعها، وتركتهما تبكيان أختهما التي لم تبخل عليهما بالحب والاحتواء والحنان، ومارست دور الأمومة بكل جدارة لسنوات، وكان لها الفضل في تربيتهما وتعليمهما لسنوات طوال.

ثم قالت زينب وهي تبكي:

- أنا متأكدة بأن جميلة قد دفعت ثمن فعلتها غاليًا، دفعت حياتها ثمنًا لخيانتها، وأنا راضية لما حصل وابن أختنا يستحق كل هذا الفداء.. فلقد كان وفيًا ورائعًا طيلة هذه السنوات الخمس التي قضيناها في السجن، دائم السؤال عنا، فليبقى سالم سالمًا لنا. ورجاءً قدمي له المساعدة النفسية إن كان يحتاج لها، فقد طلب رؤيتك عندما حدثناه عنك.

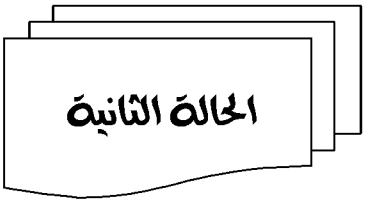

(ذئاب في صورة بشر)

استوحت الكاتبة هذه القصة من تجربة لها في جلسات علاجية لعدد من الحالات التي تعاملت معها أثناء تحضير رسالة الماجستير عام ١٩٨٥ لفتيات روعهن آباء وأشقاء ولم يحفظوا الحرمة بل انتهكوا كل القيم والمثل، وكان في صدارة الحالات حالة فتاتين شقيقتين أمهما مريضة وقد استغل الأب المريض نفسيًا مرض الأم وكان يختلي بالفتاتين الواحدة بعد الأخرى لممارسة الجنس معهما منذ أن كانتا في السابعة والتاسعة من عمرهما.. ولم تدرك هاتان الفتاتان ما ألم بهما لظنهما أن ما فعله الأب شيئًا عاديًا، فلم يقفز إلى مداركهما الغضة أن ما يفعله الأب جرم بالغ النذالة، ولم تدرك الفتاتان شيئًا عن هذا الجرم إلا وهما في الثالثة والرابعة عشر من عمرهما؛ أي بعد ما أصبحتا مراهقتين ونمت مداركهما من خلال علاقاتهما مع صديقاتهما.. حينئذ هرعتا سويًا إلى مؤسسة لعلاج الأطفال من آثار الصدمات بعد التعرض للاغتصاب، وذلك لإبلاغ مديرتها بهذا الاعتداء الغاشم الذي ظل يرتكبه الأب لمدة ست أو سبع سنوات.. فخضعت الفتاتان لجلسات علاجية مع مجموعة الفتيات اللائي تعرضن لحوادث مماثلة لمدة الشهرين وفقًا للنظام العلاجي المعمول به في هذه المؤسسة، كما أن الآباء الذين قاموا بهذه الاعتداءات يخضعون كذلك إلى برنامج علاجي آخر في ذات الوقت بهدف التقويم والتشخيص الدقيق للحالة غير السوية التي أفضت لهم إلى هذه الفعلة النكراء.. ثم بعد

انتهاء البرنامجين؛ برنامج علاج الآباء، وبرنامج علاج الفتيات؛ يتم الجمع بين كل أب وابنته لتكون جلسة نفسية مستقلة يتم خلالها المواجهة وقياس الآثار العلاجية التي من المفترض أن تكون صوبت النفس المريضة للأب وعالجت آثار الاعتداء الذي تعرض له الفتاة.

كانت تلك الجلسة والتي يطلق عليها "الليلة الخامسة" هي أقصى المأساة وأصعب الجلسات، وكان هذا البرنامج جدير بسخط أي إنسان لأنه يتعامل بشيء من البرود مع الحالة.. وليست هي الحالة الوحيدة، بل أن هناك العديد والعديد من القصص والحكايات التي تشمئز لها الأبدان وتعرق لها الجباه.

الليلة الخامسة

غامت الدنيا أمام عيني المعالجة النفسية، ولأول مرة تكاد تكره التخصص الذي اختارته، وكافحت لدخوله، وتعشق ممارسته، ولأول مره تكاد تتمنى لو أنها أصبحت طبيبة عادية أو طبيبة أطفال أو حتى مدرِّسة. حدَّقت في الفتاتين الجالستين أمامها بذهول. قالت الصغرى:

ـ ما بكِ يا دكتورة، ألم تصدقي ما قلنا؟

أكملت الكبرى:

ـ نحن نعلم أنه من الصعب تصديق حكايتنا بسهولة، فكل من تعامل معنا في بداية الجلسات انتابه الشك في كلامنا. ولكننا متأكدتان بأنك ستصدقين كل كلمة عندما تتأكدين من الأحداث بنفسك ولقاء والدنا.

كانت المعالجة قد عالجت فعلاً العديد من الحالات في بلدها وهنا في بلد دراستها لنيل درجة الماجستير، ولكنها لم تصادف مثل هذه الحالة من قبل، ولذلك كانت أكثر من مصدومة وأكثر من مذهولة وأكثر من مندهشة، كانت بحق مصعوقة:

-أيعقل هذا؟ لو رأيته في فيلم سينمائي أو تلفزيوني لما صدقته، لو قرأت عنه في إحدى المجلات لقلت إنها من مجلات الإثارة التي تخترع القصص والحكايات لتنتشر بين الناس ويزداد توزيعها. أنا لا أنكر أنني معجبة بكثير مما أرى وأسمع وألاحظ في هذه البلاد.. فأنا معجبة باحترام قيمة العمل، بغض النظر عن ماهيته، المهم أنه عمل، وليس هناك أعمال شريفة وغير شريفة، ما عدا التي تخالف القانون. أنا معجبة باحترامهم للوقت وتقدير قيمته وعدم تضييعه فيما لا يفيد.. أنا معجبة باحترامهم للعمل المتقن وإصرارهم عليه، وجعل الإتقان الحد الفاصل بين ناجح وفاشل. أذكر اندهاشي عندما وصلت إلى هذه البلاد، فقد وجدت مجتمعًا حيويًا فعالاً يضج بالنشاط في كل مكان وفي كل جزئية، يومها أدركت سر قوة هذه البلاد وتفوقها وتقدمها على غيرها، أنا القادمة من مجتمع نسي أن هذه أصلاً هي قيمنا، والمحافظة على الوقت وتقدير العمل وإتقانه هي من أهم متطلبات هذا الدين وركائزه، لكننا للأسف نسينا ما تحض عليه عقيدتنا، وأدمنا إضاعة الوقت والأيام وحتى السنين!

ولكن هل هذه هي الضريبة؟ هل يجب على المجتمعات لكي تلحق بهذا المجتمع أن تغض البصر عن مثل هذه الأفعال الشنيعة، صحيح أننا قد نكون مختلفين عنهم في بعض الأمور السالفة الذكر، ولكننا ما زلنا متمسكين بالقيم والأخلاق التي لا أقول إنها تردع الجميع، فالمرض النفسي في كل مكان، ولكن

على الأقل ما زالت الأسرة متماسكة عندنا. وما زال للأب وللأم مكانة خاصة ويُنظر إليهما بما يشبه التقديس، وهما يفنيان عمريهما ويبذلان الجهد كله ويضحيان بكل شيء، حتى بحياتهما في سبيل أبنائهما. الأم نبع الحنان والرعاية، والمدرسة الأولى ولاسيما للبنات. والأب المثل الأعلى والمحكمة والمدرسة والموجه الأول.

تذكرتْ هذا وأكثر منه وهي تستمع إلى تفاصيل الحكاية! هل هي مجرد حكاية؟ وهل تتشابه الحكايات؟ إنها حكاية جريمة من أبشع الجرائم. ومرتكب الجريمة يعترف ببرود بما فعل..

- لماذا لا يغيب عن أنظار الناس؟ كيف يستطيع أن ينظر في عيون الآخرين؟ وكيف يواجه ابنتيه في هذه الليلة ويواجه الآخرين.

تذكرتْ مجتمعها، حيث الحلال والحرام قيمتان كبيرتان تحكمان تصرفات الناس جميعًا، بل أن بعض الناس قد يهلك جوعًا أو عطشًا ولا يقترب من المحرمات، مع أن القاعدة الفقهية تقول "الضرورات تبيح المحظورات". يمتنع أغلب الناس عن فعل أشياء كثيرة، رغم أنهم في مأمن من سطوة القانون، لإيمانهم أنها حرام، ويسعى أحدهم إلى أن يكون رزقه حلالاً، وطعامه وشرابه حلالاً، وسلوكه كله بعيدًا عن الحرام.

كان نومها تلك الليلة متقطعًا تتخلله كوابيس كثيرة، واستيقظت عدة مرات لتجد دموعها بللت وسادتها. اشتاقت إلى أمها كثيرًا تلك الليلة، تمنت لو أنها تملك بساط الريح لتصل إليها. تمنت أكثر من أي وقت أن تكون لها طائرتها الخاصة لتصل إلى أمها.

لم يغب أبوها عن ذهنها لحظة، تذكرته وقد كان قد غادر الحياة، وكم تمنت فيما بعد لو أنه ظلَّ حيًا ليراها وقد حققت له آماله، ولم تخيب رجاؤه، ويراه كما توقع وقد تدرجت في الدراسة حتى نالت أعلى الدرجات، وكيف كافحت لتصل إلى هذه المرحلة وتحضر الآن لتحصل على هذه الدرجة العلمية التي ستؤهلها للحصول على الدكتوراه، وستكون لها مؤلفاتها التي بدأت من الآن بإعدادها وكتابتها.

- صباح الخير يا أبي.

- صباح الخير يا ابنتي، ما شاء الله، كيف أصبحتِ، وكيف الدراسة معك؟

- رائعة يا أبي، يطول عمرك، ويخليك لنا.

- كل ما أتمناه لكم النجاح يا ابنتي، الله يعطيني الصحة وطول العمر عشان أشوفكم كلكم متخرجين وناجحين في حياتكم.

- إن شاء الله كلنا نبيض وجهك يا أبي.

كانت طلة أبيها كل يوم هي التي تجعل صباحاتها جميلة كل يوم بوجهه المشرق بنور الإيمان واليقين والطيبة، لقد كان يؤمن بها وبقدراتها ولطالما ردد: "ابنتي عن عشر رجال".

في اليوم التالي ذهبت إلى البروفوسير المشرف عليها وعلى وجهها آثار الليلة السابقة..

- ما بكِ؟ كأنك لم تنامي جيدًا.

- لقد كانت ليلة سيئة مليئة بالكوابيس.

- لا.. يجب أن تنامي جيدًا، فالجزء العملي مهم في الدراسة.

- هناك حالة يا دكتور أرجو أن تعفيني منها

- أي حالة؟

- حالة كاترين وناتاشا.

- لا نستطيع الآن، لقد بدأتِ معهما، وأنا أرى أنهما متعلقتان بكِ وقد رأيت كيف بدأتِ تكسبين ثقتهما، ورأيت رسوماتهما، وقرأت تقارير الجلسات التي تقدمينها كل يوم عن تطور العلاج معهما.

- إذن على الأقل تعفيني من الليلة الخامسة، لا أريد أن أقابل الأب الذي ارتكب هذه الجريمة مع بناته، في نظري ما اقترفه هذا الأب جريمة، لو كان هذا في بلادنا لعوقب كمجرم، وليس كمريض نفسي، لاأعتقد إني سأستطيع أن أحضر جلسة المواجه بين هذا الأب وبناته.

- يجب أن نتناقش في هذا الأمر، فستواجهين العديد من الحالات خلال عملك، ويجب عليكِ الفصل بين مشاعرك وبين عملك.

- لا أعتقد إنني سأواجه الكثير من هذه الحالات، قد تحدث ولكن لا تكون بهذه الكثرة التي أراها هنا.

- لا يا دكتورة.. لا علاقة لهذا بمجتمع دون آخر، هذه الظواهر موجودة في جميع المجتمعات، ربما بدرجات مختلفة من حيث العدد، وربما في بعض المجتمعات يخفونها ويتسترون عليها، ولكن الجرائم موجودة، ولا علاقة لها بمستوى تعليم الذين يرتكبونها، فقد يكونوا من المتعلمين، أو قد يكونوا من الجاهلين وأشباه الأميين. أنتِ تعلمين يا دكتورة أن النفس البشرية عميقة الأغوار، وأن من المستحيل كشف كل مكنوناتها. وكلما تمعنا تمعنًا بعيدًا نجد أشياء نستغربها أكثر.

- ولكنها جريمة مقززة، وأنا حقيقة أشعر في بعض الأحيان بمشاعر حنق وغضب تجاه هذا الرجل، وأحس أنني سأعاني عند التعامل معه، وخائفة أيضًا على كاترين وناتاشا في نفس الوقت من هذه المواجهة، مع أنني هيئتهما لها، وقمنا بلعب أدوار أكثر من مرة، وأجادتا لعب الأدوار، وجهزتا الحوار لعدة سيناريوهات ولعدة احتمالات لمواجهة أبيهما.

ارتسمت ابتسامة حنونة على وجه المشرف وقال:

- هيأتِ كاترين وناتاشا للموقف ولم تهيئي نفسك، ألم يكن الأجدر بكِ أن تعملي مع نفسك أيضًا، حسب علمي أنكِ خضعت لجلسات نفسية لمدة طويلة قبل أن يتم قبولك للانضمام إلى برنامج الماجستير في هذه الجامعة.

- نعم.

- وأعتقد بأن تلك الجلسات يجب أن تكون ساعدتك على التخلص من التمييز بين عواطفك وبين عملك.
- أظن ذلك... ولكن.....
- هل تدرين أن ذلك سيؤثر على تقديرك في هذه المادة؟
- لا يهم، أنا تقديري في جميع المواد امتياز، ولن تؤثر هذه المادة على التقدير العام وهذا المهم.
- تعجبني ثقتك بنفسك، وهذا يجعلني متأكدًا بأنك ستحضري الليلة الخامسة، وستكوني مع كاترين وناتاشا، وسيكون هذا أكبر دعم تقدميه لهما في يوم يعد من أصعب أيام حياتهما، فلا تتخلي عنهما في هذا اليوم الصعب.

لم تساعدها كلمات البروفسير كثيرًا، ولم تهون الأمر عليها، ولكنها قررت الاستماع إلى نصيحته..
- معه حق، أنا معالجة نفسية، أي طبيبة، الطبيب يعالج الجسد، ونحن نعالج النفس والروح، وهل يحق للطبيب أن يختار من يحب أو يكره من مرضاه حسب رغبته؟ وهل يحق له أن يرفض علاج أي مريض لمجرد أنه اشمأز منه أو من مرضه؟

ما إن حان وقت جلسة كاترين وناتاشا التي تلت ذلك اللقاء مع المشرف إلا وقد كانت المعالجة تخلصت تقريبًا من مشاعرها السابقة "ما ذنب هاتين الزهرتين الغضتين؟ المذنب أبوهما. فلماذا أجعل الفتاتين تدفعان ثمن اشمئزازي منه ومن جريمته؟"

ابتسمت لهما وحاولت أن تكون طبيعية إلى أبعد حد. قالت كاترين:

- لقد كانت الجلسة السابقة معك جدًا مفيدة، مع أننا أحسسنا أنك كنت غير مرتاحة. عندما طلبتِ مني أن أرسم ما حصل أحسستُ براحة بعدها كأنني أفرغت غضبي على الورق، مع أنها كانت ثاني جلسة لنا بعد الجلسة التي أطلقتِ عليها "جلسة خلق الألفة" لقد خلقت الألفة في ثوان بيننا، لا تتخلي عنا. رجاءً.

أضافت ناتالي:

- رجاءً دكتورة!

أجابت المعالجة النفسية:

- لن أتخلى عنكما، سأواصل الجلسات معكما.

دعونا اليوم نتحدث عن التفاصيل قبل الليلة الخامسة، وبالتأكيد أنتم تعرفون ماذا سيحدث في الليلة الخامسة، المواجهة ستكون بينكما وبين والدكما، ومن المؤكد أنها ستكون ليلة صعبة على الجميع، أنا من الآن متوجسة وخائفة من الموقف، لن تكونا لوحدكما، هل تتذكرون المجموعة التي رأيناهم في جلسة العلاج الجماعي في الجلسة السابقة، كل فتاة مر على علاجها خمس جلسات ستواجه الإنسان الذي اعتدى عليها، لذلك سموا هذه المواجهة بالليلة الخامسة.

سأوجه السؤال إلى كاترين الآن بما أنها الأكبر سنًا:

- كيف سمحتِ لأبيك أن يفعل بكِ ما فعل، ثم تركته يفعل الشيء نفسه بأختك وأنتِ كنتِ قد عانيت وعرفت مدى الألم والمعاناة؟

وكأن هذا السؤال أثار غضبها،

- وماذا كان بيدي أن أفعل؟ وما كنت أعرف شيئًا عما يحدث، إنه أبي، هل نسيتِ هذا؟

- حسنًا اهدئي، حدثيني بكل ما جرى.

- كنت في التاسعة.. وكانت ناتالي في السابعة.

- وأين كانت أمك؟

- كانت مريضة في غرفتها، وكانت مضطرة لتناول كثيرًا من الأدوية، وقال لنا الطبيب إن بعض هذه الأدوية مهدئات للألم وتجعل الإنسان ينام نومًا عميقًا، بحيث لا يشعر بشيء حتى لو انهار المكان.

تدخلت ناتالي:

- قبل هذا أريد أن أشرح لك أننا متعلقتين بوالدنا كثيرًا.

- وما سبب هذا التعلق؟

- كما قالت ناتالي.. كانت أمي مريضة منذ سنوات، ولم نكن نعرف مرضها، يقولون إنها مصابة بمرض مزمن لن تشفى منه.

- ولكنها كانت مواظبة على تناول الأدوية؟

أضافت ناتالي:

- نعم.. ولكنها، لم تكن تستطيع بسبب مرضها الاهتمام بنا، ولذلك أخذنا على عاتقنا أنا وأختي أن نقوم بأعمال المنزل مع أبي.. الحقيقة كان أبي يعتني بنا جيدًا.

استلمت كاترينا الحديث:

- كان يعود إلى البيت في وقت متأخر مخموراً.

قاطعتها المعالجة:

- كيف يمضي وقت فراغه في الحانات، ويعود في وقت متأخر مخمورًا، وتقولان إنه كان يعتني بكما جيدًا؟

- لم يكن يسكر طوال الوقت.. كان يأخذنا في أيام العطلة الأسبوعية والعطل الرسمية إلى الحدائق وملاعب الأطفال، ويبقى معنا طوال الوقت، ويشتري لنا كل ما نطلبه، بل كان يلعب معنا أغلب الأوقات، ويأتي محملاً بالهدايا الجميلة في كل المناسبات، وكنا نقضي أجمل أيام في أعياد الميلاد ورأس السنة.

- ولأن أمي مريضة ونائمة معظم الوقت، ولأننا نخاف من صوت الرعد، كنا نلجأ إلى سريره في الليالي الباردة والعاصفة.

- وكان يحكي لنا الحكايات قبل النوم، أي أنه قام بدور الأب والأم معًا. وفي ليالي البرد كان يأتي إلى فراش إحدانا:

- أدفئيني يا حبيبتي.. ليس مثل دفء الإنسان للإنسان..

- وكان هذا يسرنا.

كانت ناتالي خجولة وكان الخوف يبدو عليها، وكأنها لم تتخلص بعد من آثار الصدمة وما حدث معها، على الرغم من أنهما خضعتا للعلاج مع رفيقات لهن تعرضن لحالات مماثلة، فإنها ظلت تنظر حولها برعب وتلتصق بأختها، وكانت كاترينا تتولى معظم الحديث:

- كان يقبلني، ويضمني بقوة إلى صدره، وكنت ألعب بشعر صدره بينما يلعب بشعري، ولكنني كنت أستغرب أنه يمرر يده على جسدي كله، ويتوقف عند الأماكن الحساسة، كما كنت أستغرب قبلاته الحارة.

- أليس عاديًا أن يقبل الأب ابنته؟

- ولكنني لم أر أبًا يقبل شفتي ابنتيه.

- وهل كان يفعل معكِ مثلما كان يفعل مع كاترين يا باتريشيا؟

- نعم.. وكان يحذرنا من رفاق السوء، ولا سيما الصبيان، وكنا صغيرتين لنفهم مثل هذا التحذير.

عادت كاترين إلى الكلام:

- حكى لي أكثر من مرة عن إخلاصه لأمي وأنه لا يريد أن يتخذ لنفسه صديقة أو عشيقة، وكنت أعتز به وأفتخر بهذا بين زميلاتي. قال لي، وكرر هذا الحديث مرات:

- لو تعلمين كيف تزوجنا أنا وأمك، لقد أحببتها حبًا عظيمًا، وما زلت أحبها، وأحبتني أيضًا. لقد اعترضت

جدتك، رحمها الله على زواجنا، فلم تكن ترتاح إليّ، ولكن حبنا انتصر على اعتراض الجميع.

قالت المعالجة:

- سنتابع غدًا.

في بلادها يتجنب الأب أن يظهر من جسمه أي عورة أمام بناته، وكذلك الأخ مع أخواته. وعندما تكبر البنت يقبلها الأب على جبينها في الأعياد والمناسبات، وتقبل هي يده، وقد تقبل جبينه أو خده لا أكثر.. يتجنبون أي احتكاك جسدي بين ذكور الأسرة وإناثها.

قالت لنفسها:

" هذا أفضل، حتى لو قالوا عنا إننا متخلفون، حتى لو ادعوا ضرورة نشر الثقافة الجنسية. الثقافة الجنسية يمكن الحصول عليها بطرق علمية وبما لا يخالف الدين ولا التقاليد والأعراف، قرأت مرة في أحد الكتب القديمة عن أخ عاشر أخته، وكانا ولدي ملك، فصعقهما الله وتحولا إلى عمودين أسودين، قلت هذه أسطورة، ولكنني أتمنى لو أن هذا الأب ضربته صاعقة، فأراحت ابنتيه والعالم كله منه".

وخطر لي خاطر لو أن المشرف قرأ أفكاري لنزل معدلي أكثر في هذه المادة، ولربما رسبت أيضًا.

في الجلسة التي تلت تلك الجلسة، جاءت الفتاتان بحيوية أكثر، وجاءت المعالجة بألم أكبر:

- ألم يخطر لكِ أن تتحدثي مع أمك حول هذا الموضوع؟

- نعم.. تحدثت مع أمي حول أمور كثيرة، كانت أمي امرأة تقليدية جدًا من نوع النساء اللواتي لا يتكررن كثيرًا! قالت لي مرة:

- هكذا ربتنا أمي يا حبيبتي، أنا وخالك الذي يصغرني بثلاث سنوات.

- وكيف كانت جدتي يا أمي؟

- امرأة لن تتكرر.. يندر وجود أمثالها في هذا الزمان وفي كل زمان، كانت ترأس جمعية للدفاع عن حقوق الإنسان ومحاربة العنصرية والظلم الاجتماعي والانحطاط الأخلاقي. وكانت تقول دائمًا: إن التقدم الحضاري لا يجب أن يكون على حساب الأخلاق. فكل حضارة بدون أخلاق تنهار حتمًا، لأن الله يغضب عليها، وعندما مات أبي (جدك) رفضت أن تتزوج، وكرست حياتها لنا وللقضايا التي تدافع عنها.

قالت المعالجة:

- دعينا نعود إلى أبيك..

- نعم.. جاء ذات يوم، وكنت قد خرجت من الحمام، فدخل فراشي وقال لي: لقد اشتريت لكما عطرًا جديدًا.. جرباه.

وكان العطر مدهشًا، قلت له: أريد أن أنام بابا إذا سمحت، فأنا متعبة.

فتركني وذهب إلى سرير أختي في نفس الغرفة، ونمت بسرعة فقد كنت حقًا مرهقة. لكنني استيقظت على صوت أختي.

قالت ناتالي:

- كنت أتألم وأبكي.. قلت له: أرجوك يا بابا إنك تؤلمني.. يكفي.

- وماذا كانت ردة فعله؟

- قال لي: يا ابنتي، أنتما أقرب الناس إليّ.. أنا لكما وأنتما لي، وليس لي غيركما في هذه الحياة، وليس لي لكما غيري، اقتربي قليلاً.. تحمليني لحظة فقط.

قالت كاترين:

- أفقت كأنني في حلم مزعج، وقلت ما هذا؟ ونهض أبي عاريًا وفي حالة هياج، واستغربت منظره، ولم أصدق أن هذا أبي، كان يبدو وكأنه حيوان مفترس، لم أره منذ قبل بهذه الصورة. كان يتصبب عرقًا، وكان وجهه مشدوهًا مرتجفًا وكانت عيناه زائغتين. كررت سؤالي: ما هذا يا أبي؟

ترك سرير أختي وجاء إلي: "اسمعي يا حبيبتي.. أنا أحبكما أنت وناتالي، وقد أصبحتما كبيرتين وناضجتين".

قاطعتها المعالجة:

- ولكنكِ كنتِ في التاسعة، وكانت ناتالي في السابعة.

- هذا صحيح، ولكن هكذا قال، ولا تنسي أن مرض أمنا وتحملنا مسؤولية المنزل جعلنا نبدو أكبر من عمرنا بكثير...

ثم تابع أبي كلامه معي:

- لا يمكن أن يسعدكما غيري، وأنا لكما بكل ما أملك، إنني أضحي بكل شيء في سبيلكما، فلا يوجد أحد يستحق حبكما غيري، أنا لم أخن أمكما مع أي امرأة، ولا أريد أن أخونها ولكن أنتما شيء آخر. والأب ليس له إلا ابنته، والبنت ليس لها إلا أبوها.

- ولكن هل كل الآباء يفعلون مثل هذا مع بناتهم؟.

أجابني بثقة عجيبة وهو يمط الكلمات:

- طبعًا.. طبعًا يا ابنتي.. هذا سلوك عام بين الرجال وبناتهم، والرجل الذي لا يحب ابنته لا يقترب منها، أما إذا كانت ابنته جميلة ومهذبة ومجتهدة ومطيعة ومثيرة، فإنه أولى الناس بها.

- وهل يفعل أصدقاؤك مع بناتهم ما تفعله معنا؟

عاد يؤكد وهو يمط الكلمات:

- طبعًا، لطالما حدثني الأصدقاء عن ليالي ممتعة يمضونها مع بناتهم، وكنت أنتظر اليوم الذي تكبران فيه لكي استمتع فيه معكما وأمتعكما أيضًا.

- لكنني لن أقتنع بما تقول إلا إذا سألت أمي، فإذا قالت إن هذا سلوك طبيعي فإنني أقبل.

ظهر عليه التوتر والغضب لحظتها، لكنه تمالك نفسه:
- إياكِ أن تفعلي شيئًا من هذا القبيل.. هل تريدين قتل أمك، إنها مريضة، وهذا قد يثيرها ويغضبها، وقد يكون سببًا في موتها.

أنهت المعالجة الجلسة بعد أن اتبعت بعض الأساليب العلاجية مثل لعب الأدوار والذي يساعد بناء على المواجهة، والتخلص من الغضب من الطرف الآخر، وكذلك التدريب على الاسترخاء، فقد كانت البنتان في أشد الحاجة إلى ذلك، وخاصة ناتالي، الفتاة الصغرى لأنها كانت في حالة من الغضب والتوتر لدرجة أنها أحيانًا تلتزم الصمت لفترات في منزل الإيواء الذي كانتا فيه لأيام كما يقول التقرير الذي يقدم من قبل العائلة التي تقضي فيها الفتاتان أيامهما في تلك الفترة إلى أن تتم معالجتهما.

كانت تلك الجلسات من أصعب الجلسات على المعالجة النفسية، فكما قالت لها إحدى المشرفات في إحدى دور رعاية للبنات المغتصبات ذات يوم، أنها إذا عملت مع هذه الشريحة من البشر، فإنها ستخلق لديها بذرة شك في كل من حولها، وهذا ما حدث بالفعل في بداية الأيام، استعرضت المعالجة في ذهنها جميع الآباء الذين تعرفهم، ولكنها كانت تتدارك: "مستحيل أن يفكر أحدهم مجرد تفكير بمثل هذا الفعل الشنيع".

تلتفت حولها، وتأخذ في النظر إلى الرجال الذين تراهم، في المؤسسة.. في الشارع.. في المطعم، في الحديقة.. هل بين

هؤلاء من على شاكلة هذا الأب المتوحش؟، ربما هذا الرجل الأنيق في المقهى، أو ذاك النائم على مقعد الحديقة، أو هذا النادل في المقهى، وأبو تلك الطفلة.. يا رب !! إنه عذاب".

في الجلسة التالية، تابعت المعالجة استفسارها عن سبب إخفاء السر طوال تلك المدة، فسألتهما:

- هل اقتنعتما بكلام أبيكما، وامتنعتما عن أخبار أمكما؟

قالت كاترين:

- كانت أمي مريضة جدًا كما أخبرتك، إنه نوع من السرطان ينهش جسمها، وفي ذلك اليوم نقلناها إلى المستشفى كما طلب الطبيب، نظرت إلي وهي تبكي وقالت:

- أنا قد أموت يا ابنتي، أوصيك بأختك، اعتني بها جيدًا، واعتني بنفسك، أنا آسفة لأني لم أستطع القيام بواجبي تجاهكما، لقد أتعبتكما كثيرًا معي، وأنتما في أصعب الظروف، وبحاجة إليَّ أكثر من أي وقت.

ثم قالت لي كلامًا لم أفهم مغزاه جيدًا.. قالت:

- انتبهي يا ابنتي.. لا تسلمي نفسك إلا لرجل يحبك وتحبينه.. تعيشان معًا في بيت جميل، وتبنيان أسرة محترمة كأسرتي أنا عندما كنت صغيرة.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ منذ تلك الليلة، صار يتنقل بين سريري وسرير أختي. فقد يكون معي أول الليل، فيرهقني بطلباته المجنونة، ثم ينتقل إلى ناتالي، فأغط في النوم بعد تعب وإعياء، وأدفن رأسي تحت الوسادة لكي لا أسمع ولا أرى. وكان يحاول مراضاتنا بكل وسيلة لنشبع له رغباته.

وأضافت ناتالي:

ـ كان يأتينا بالهدايا الثمينة المكلفة. ولكنه كان يطلب منا أن نتزين ونضع المكياج المبالغ فيه ونزين شعرنا، وعندما كنا نقول له لا نعرف، كان يشرح لنا ويساعدنا.

عادت كاترين إلى الحديث:

ـ لم يعد يتأخر في العودة إلى المنزل، بل صار يعود مبكرًا، وفي معظم الأحيان يجلب معه العشاء.

كانت المعالجة تصاب بالدوار وهي تستمع إلى تفاصيل ما تحكيه الفتاتان، بما يصعب نقله إلى الورق: "إنه كابوس وليس واقعًا. لا إنه حقيقة، ليته كان كابوسًا لأصحو وأجده قد انتهى"، وكانت تحاول جهدها التركيز مع الفتاتان وأن لا تبدو متعصبة ضد أبيهما ولا تظهر الكره إذ كان يكبر بسماع تلك التفاصيل، فهي لابد أن تتعامل بحياد مع كل يلجأ للعلاج بغض النظر عن طبيعة مشكلته.

وطرحت المعالجة النفسية السؤال الذي كانت تنظر أن يوضح لها الصورة:

- وكيف اكتشفتما الحقيقة؟

قالت كاترين:

- ذهبت إلى المدرسة ذات يوم. فنظرت إليَّ إحدى صديقاتي، ويبدو أنها لاحظت علي بعض الآثار التي تركها أبي فقالت لي ضاحكة:

- يبدو أنكِ أمضيتِ وقتًا ممتعًا مع صديقك الليلة الماضية.

- ليس لي صديق، ولكنني أمضيت الليلة مع أبي.

صرخت صديقتي وكأن أفعى لدغتها:

- ماذا؟ مع والدك؟ هل هذا معقول؟

قلت بهدوء:

- ماذا بكِ؟ لماذا تستغربين؟ إنه أمر عادي. ألا يفعل جميع الآباء هذا مع بناتهم؟

عادت صديقتي تصرخ بهستيرية:

- وتكررين الكلام كأنه أمر طبيعي.. هل أنتِ مجنونة أم بلهاء؟ طبعًا لا يفعل أب عاقل مثل هذا بابنته.. إنه من أفعال الشواذ الذين لا أخلاق عندهم.. ألم تتعلمي أن هذا ينافي الفطرة السليمة والسلوك السوي؟ ألا تعلمين أن هذا ترفضه جميع الديانات والشرائع السماوية والأعراف الإنسانية؟ وحتى القانون يعاقب عليه.

- وماذا حصل بعد ذلك؟

- ذهبت معي صديقتي إلى الأخصائية النفسية في المدرسية، وبلغت لجنة حماية الطفل، حيث اتخذوا الإجراءات المناسبة، وحققوا مع أبي.. في البداية أنكر، وقال إن كل ما نقوله نتيجة اكتئابنا بسبب حزننا على والدتنا المريضة، ولكن بعد ذلك اعترف، وهو الآن انتهى من جلسات العلاج الجماعي التي خضع لها مثلنا، ويحضر جلسات العلاج الفردي مثلما نحضر معكِ هذه الجلسات، ليهيأ للقائنا في الجلسة الخامسة والتي يُطلق عليها... " الليلة الخامسة".

(مرضى الإيدز)

ليس العمل مع الذين على حافة الموت في الولايات المتحدة الأمريكية هي التجربة الوحيدة التي تعاملت بها مع هذه الفئة، ولكنني في قطر تعاملت أيضًا مع فئة مماثلة هم مرضى الإيدز.. الفارق الوحيد أن الذين كانوا على حافة الموت في أمريكا كانوا صغارًا وكانوا ضحايا السرطان المرض الخطير والذي هو أحد إفرازات العصر والحضارة.

وفي قطر تعاملت مع أخطر وأحدث إفرازات العصر أيضًا وهو مرض الإيدز.. والذي يُعرف المصاب به أنه على بضع خطوات من القبر، وهذه الفئات التي تنتظر الموت بين لحظة وأخرى يكون لها سيكولوجية خاصة.. إنها تمارس ضبطًا مروعًا في داخلها بانتظار المثول بيد الخالق.. ولكنها مع ذلك تحاول وهي بين براثين الموت ألا تترك آثارًا اجتماعية تشوه ذكرهم، وهم يلجئون إلى المواربة والكتمان أو إخفاء أسباب المرض نظرًا لما كان يشاع أن الوسيلة الوحيدة للإصابة به هي الاختلاط الجنسي غير الشرعي والشذوذ.. فهذه الدعاوى الضدية التي أطلقت في البداية قرنت مرض الإيدز بصور سلوكية تلاحق صاحبها حيًا وميتًا.

وقد تلخصت التجربة التي مررت بها في التعامل العلاجي مع مرضى الإيدز في قطر في أن الطبيب المعالج كان يقول لمرضاه بالإيدز إنهم سيخضعون لعلاج نفسي جماعي في محاولة

للتخفيف عن وطأة الأثر النفسي لهذا المرض الخطير.. وقد قُيد لي أن ألتقي في جلسة علاجية برهط من مرضى الإيدز كان كل منهم يتحدث عن الظروف المعروفة لديه والمسببة لهذا المرض الخطير.. واستمعت من كل منهم حكايته مع هذا المرض بدءًا من أسباب الإصابة وظروفها وكيفية اكتشافها إلى ما وصل إليه المريض في تلك المرحلة من حياته من ألم اجتماعي أكبر منه ألم عضوي أو نفسي.

وقد استمعت إلى قصص عديدة أكثر ها إثارة قضيتين لمريضين تباينت ردود فعلهما لدى علمهما بإصابتهما بالإيدز..

فالقصة الأولى: لمريض حينما أعلن الأطباء عليه إصابته بالإيدز أصيب بحالة من الانهيار النفسي؛ ليس خوفًا على حياته هو فقط، ولكن ظن أنه قد تسبب في إصابة زوجته وأطفاله وذويه بهذا المرض وفقًا لما كان يعلن عن طريق الإصابة والعدوى بطاعون العصر.. فهرع إلى زوجته وأجرى لها فحصًا على دمها وتأكد من سلامتها، وفعل نفسي الشيء مع ذويه المقربين منه.. وحينما تيقن أنه كان المصاب الوحيد فقط في أسرته فإنه افتعل خلافًا مدويًا مع زوجته ليبرر الانفصال عنها ثم لجأ إلى شقة استقل فيها مبتعدًا عن من يعرفهم في إنطوائية استهدفت تحمل مسؤولية مرضه بنفسه وإبعاد شر الإصابة به عن غيره ممن حوله، وكان ذلك موقفًا اقتنع به ووجد له المبرر القوي، فظنه الآخرون عصبيًا وذو سلوك شاذ وانفعالي، ولكنه

في قرارة نفسه كان يلعب دورًا تمثيليًا حتى لا يتسبب في إيذاء الآخرين مثلما أوذي بهذا المرض، وقضى حياته وحيدًا منزويًا يتجرع آلامه ويستأثر بإنطوائية ويفضي إلى الله بأحزانه حتى لا يتسبب في عدوى من يحبهم.. ومات هذا الرجل ولا تعرف زوجته أنه كان يحبها إلى حد الخلاف معها لإنقاذها من مصير تلقاه وحيدًا.

أما القصة الثانية.. والتي هي كانت على العكس تمامًا من القصة الأولى فإن صاحبها المريض بالإيدز سكنته مشاعر عدوانية تجاه المجتمع الذي اتهمه هذا المريض بأسوأ الاتهامات لإصابته بهذا المرض، وبدلاً من أن ينئ بنفسه وبمرضه عن الآخرين.. انخرط هذا الإنسان في علاقات جنسية غير شرعية مع أخريات وهو على قناعة كاملة باستهداف إصابتهن بما أصيب به من خلال علاقة مماثلة مع مصابة.. فقد وزع فيروسات الإيدز متعمدًا على كل من التقى به في ردة فعل غاضبة وعدوانية تولدت لديه من جراء الإصابة بهذا المرض المسمى طاعون العصر.

فشتان بين موقف المريض الأول.. وموقف المريض الثاني من مجتمعه وممن حوله.. وظيفة العلاج النفسي في هذه الحالة هي إحداث التوازن في موقف المريض.

التوازن في حالة المريض الأول يكون بمساعدته على أن يعيش بين أهله دون أن يتسبب في إصابتهم ونقل العدوى لهم بهذا المرض الخطير، وذلك بشرح الطرق التي يمكن أن يتبعها لمنع العدوى، والإجراءات التي عليه إجرائها للوقاية..

أما إعادة التوازن للمريض الثاني فتكون باستئصال هذه المشاعر العدوانية من ذاته المكلومة بأسباب الإصابة وإشعاره بأهمية أن يكون إنسانًا متسامحًا لا انتقاميًا كما انبرى فيه الانتقام من المجتمع..

وفي الحالتين يعتمد العلاج النفسي على إعلاء القيم العليا لدى المريض وتخليصه من المشاعر السالبة التي تحشد فيه أسباب النقمة (في حالة المريض الثاني) أو أسباب الإنطوائية المريض والعزلة (كما في المريض الأول) ومساعدتهما علي استشراق الغد وشحنهما بقوة نفسية تعينهما على تلقي العلاج وإن كان هذا العلاج ميؤوسًا منه في الكثير من الحالات كما هو معروف.

التجربة إذًا شاقة لأنك تتعامل مع مرضى على حافة الموت، هم أقرب إلى المحكوم عليهم بالإعدام البدني والاجتماعي لما يقترن بهذا المرض من شبهة اجتماعية تدين صاحبها بشتى التهم الجنسية الفاضحة، علمًا بأن بعض حالات المرضى انتقلت إليهم بغير الخوض في علاقات جنسية غير شرعية، مثل نقل الدم الملوث أو ملامسة دم مريض بهذا المرض أو أي طرق أخرى غير الاتصال الجنسي.

ولهذا فإن ثقافة المجتمع التي ربطت بين الإصابة بالإيدز والانحطاط الجنسي هي بحاجة إلى تقويم يشرح الطرق المتمثلة للإصابة بهذا المرض، وبالطبع فإن الجنس هو أحد وسائل انتقال العدوى، كما أن تعاطي المخدرات بالحقن وسيلة أخرى ولكنها ليست كل الوسائل مما يقتضي إشاعة توعية خاصة لتوضيح طرق الإصابة لهذا المرض الذي خصصت الأبحاث لمكافحته مئات الملايين، وتعكف على اكتشاف طرق علاجه العديد من معاهد البحث العلمي في العديد من دول العالم.

ولا أنسى أيضًا أنني في إحدى حالات مرضى الإيدز التي تقوم على الاستماع على السيرة الذاتية كاملة أن هذه الحالة قد أصيبت بما يشبه الهلع بعد اكتشاف صاحبها أن التي استمعت إلى قصة ظروف إصابته هي مواطنة قطرية.. إذ ظن أنها ستشيع هذه القصة لتلحق به وبأسرته عارًا اجتماعيًا.. وكأن السرية في العلاج النفسي والاجتماعي ليست مكفولة للمرضى ولا كأنها ليست مبدأ أصيلاً وأساسيًا لا يكون المعالج أهلاً لممارسة المهنة إلا بالالتزام بها.

وعلى الصعيد الإنساني لا يمكن لإنسان أن يهيل التراب على إنسان آخر بمجرد التندر أو اللفظ اللساني أو الثرثرة، فالحديث الشريف: « اذكروا محاسن موتاكم، وكفُّوا عن مساوئهم » يخرس أي لسان ينزلق إلى هاوية الكلام في ماضي أي إنسان

كان مريضًا واختطفه الموت، فما بال المعالج النفسي الذي هو بئر أسرار الآخرين والحفاظ على أسرار اعترافاتهم لأن معرفة هذه الأسرار أسلوب علاجي ومعطيات نفسية للوقوف على طبائع الحالة ومرجعيتها وليس لنشرها غسيلاً قذرًا على الآخرين.

لا أستحق الحياة

- أرجوكِ لا تحاولي معي.. فأنا ارتكبت خطيئة عاقبني الله عليها بالإيدز.. فما ذنب الناس الأطهار الذين حولي لكي يصابوا بذلك.. ورغم أن الأطباء أكدوا لي أن احتمال إصابة أحدهم بسببي شبه معدوم إلا إنني لا أريد أن أكون ولو سببًا ضئيل الاحتمال في إيذائهم..

هكذا بدأ حديثه مع المعالجة النفسية التي جلست إليه بعد أن أكدوا له أن المعالجة التي سوف تزوره سيدة متفهمة ومثقفة وإنسانة راقية المشاعر الأمر الذي ساعد على خروجه من عزلته الإرادية، وبعد أن أكدت له المعالجة أنها لم تأتِ ليغادر بيته الهادئ أو أن تحرمه من خلوته التي فرضها على نفسه، أكدت له سمو خلقه كونه لا يريد إلحاق الأذى بأي من الناس.. لكنها طلبت منه أن يحكي لها قصته.

- كنت يا سيدتي صبيًا متزنًا ومستقيمًا وكنت من المتفوقين بالمدرسة.. وكانت أسرتي متوسطة الحال.. لا أذكر أن الوالد أجل صلاة فرض لدقائق.. وكانت أمي امرأة بسيطة غير متعلمة

منشغلة معظم وقتها في ترتيب البيت وتنظيفه والاهتمام بملابسنا وأكلنا ونظافتنا.. لم يتخلف أحد منا عن صلاة الفجر مع الوالد.. وفي الصباح نجلس جميعًا لمائدة الإفطار التي تكون والدتي قد أعدتها، ورغم أنه كانت لي أختان كبيرتان إلا أن أمي لم تحاول أن تعتمد أي منهما في أي أمر من أمور البيت من طبخ أو نظافة أو إشراف على كل صغيرة أو كبيرة، حتى الخادمة كانت لا تقوم إلا بالأعمال الجانبية، أما كل الأمور الهامة والأساسية فقد كانت أمي تقوم بها عن رضا وقناعة تامة وبحب لا مثيل له.

حدّد لنا والدي معارفنا جيدًا، وكان يتدخل كثيرًا بالسؤال عن أصدقائنا وعن أهلهم.. كل شيء كان يتم على خير ما يرام.. أذكر ذات يوم كنت عائدًا من المدرسة في أواخر السنة الثانية ثانوي.. وجدت بالبيت ضيوفًا عندنا.. كانت خالتي مع بنات ثلاثة لها إحداهن تصغرني بعام.. لا أدري لِمَ خفق قلبي بقوة بمجرد أن رأيتها وقد ابتسمتْ لي ابتسامة أيقظت بداخلي مشاعر لا تزال تشعلني.. لم أتكلم معها سوى كلمات.. كنا كأسرتين قليلي الزيارة لبعضنا والأقل من ذلك أن نلتقي كأولاد وبنات.. لم يكن أبي يشجع على العلاقة مع زوج خالتي.. يقول أبي إنه يعمل في البورصة والأموال الربوية، وهو لا يريد الاحتكاك بهذه العينات من الناس..

قالت لي ابنة خالتي : لماذا لا تزورونا؟ ولماذا لم تأتِ مع خالتي عندما رافقت أمي للمستشفى قبل شهرين؟؟ لم أدر ما أقول، لكني أكدت لها أني دائمًا سوف أزورها.. سألتها : هل تحبين أن أزوركم كل شهر مثلاً؟ فردت عليَّ: بل كل أسبوع، ويا ريت كل يوم.. كانت تخطف الأمنيات من لساني.. أحسست براحة وطمأنينة وذوق عال، شعرت بحب لها عارم.. وتغيرت كل حياتي من تلك اللحظة.. بدأت أستمع للأغاني الجميلة واقرأ الروايات والشعر، ذهبت للمكتبة وجمعت كل دواوين نزار قباني، لكني كنت أجد أن حبيبتي أروع من حبيبته، وأنني احتبس من المشاعر لحبيبتي ما هو أعظم من مشاعره لحبيبته، وكنت بلا شك أكثر حشمة منه.. بدأت أكتب كلمات وأبيات شعر وأمزقها، أريد أن أكتب لها ما يليق بها وبحبي لها وأدسه بيدها عند سلامي عليها لأنني لن أتمكن من الحديث مطولاً معها عندما سنذهب لزيارتهم..

بعد شهر تقريبًا جهزت أمي نفسها لزيارة أختها بعد أن تمكنت ابنة خالتي من إقناع أمها بأنها مشتاقة لخالتها، أصابتني رعشة وتصبب عرقي وكدت أطير فرحًا.. أمي أنا رفيقك لزيارة خالتي، وكان أبي منشغلاً بأمر خاص به.. لم يكن بيتهم كعادته كل شيء فيه ينطق بحبها لي.. كانت في ذلك اليوم رائعة الجمال وخفة الروح، كانت شجاعة وقوية، وبعد دقائق قليلة قالت:

- أمي لو سمحت أريد أن يشرح لي ابن خالتي درس في الرياضات فأنا مستصعبة من بعض المسائل.

فقالت خالتي:

- لا تتعبي ابن خالتك.

- أبدًا أبدًا يا خالة.

وقمت مسرعًا وجلست معها أمامنا كتاب الرياضيات، فتحت على الدرس.. كل شيء تلخبط لم أعد أقدر أن أميز بين رمز وأخر، القوانين كلها أصبحت في خبر كان.. أعطيتها الرسالة، فسألت ما هذه ولمن وممن؟ قلت هي رسالة مني إليك.. فقالت ها أنت جالس معي ولا نحتاج رسائل.. ماذا بها؟ قلت اقرأيها!! فقالت : قل لي أنت ما بها، وبعد مجادلة وإلحاح منها.. قلت لها: إني احبك. قالت منذ متى.. ؟ قلت منذ زيارتكم الأخيرة.. قالت : أما أنا فمنذ أكثر من سنتين... !!

فرحت بها وأحسست أن كل سعادة عمري بدأت منذ الآن فعلاً.

كنت من حين لأخر ادعي لامي أن خالتي اتصلت بالتليفون وأخبرتني أنها بشوق لأمي.. وأحيانًا اتصل بخالتي أخبرها أن أمي تبلغها السلام وإنها مشتاقة إليها وهي متعبة بعض الشيء وكذلك كانت تفعل ابنة خالتي مع أمي وأمها.. مما كثف من زيارات الأسرتين والتقائنا بحجج كثيرة..

كم كانت مؤنسة ورائعة وحنونة.. كانت تلبس أجمل ثيابها وكان ذوقها في اختيار ملابسها وألوانها وكأن تلك الألوان والأقمشة صنعت خصيصًا لها.. كنت أعرف أن سفر أسرتها متعدد لدول كثيرة في أسيا والدول العربية والأوربية فكان والدها يصطحبهم كل سنة مرتين في زيارتين للخارج، لم تشعرني لحظة بتميز وضعهم المادي عن وضعنا وكنت حساسًا لذلك بل كانت تظهر لي مدى تفاهة الأشياء.. أحببتها وكأني أسبح في الفضاء.. إلا إنني كنت أحس بالخجل من والدي.. ماذا سأقول له؟ وهو من علمني أن القرش الحلال والعيش الحلال هو رأسمالنا وأن أولئك الناس ليسوا من ثوبنا..

مرَّت الأيام مسرعة وأنهيت دراستي الثانوية.. خططنا سويًا كيف نبني مستقبلنا وكيف نكمل دراستنا ومتى نتزوج.. وفي التفاصيل كنا نقضي ساعات طويلة.. حتى جاءت الصاعقة فجأة على قلبي...

ابن عم لها عاد من الولايات المتحدة توًا.. وقد أنهى دراسة الدكتوراه في إحدى جامعاتها.. ولد ثري وأبوه صاحب مصلحة كبيرة في البلد.. أبوها وأمها وجميع أخوتها ذهبوا لاستقبال ابن العم الذي فُوجئ بابنة عمه؛ فلقد غادر البلد قبل أربعة سنوات كانت طفلة صغيرة لم تتضح معالم أنوثتها بعد.. صعق بجمالها ورقتها.. ساعدته جرأته التي اكتسبها من غربته أن يتكلم معها

كلمات إعجاب، فهم الوالد من ولده اهتمامه بها فقال له: يا ابن أخي إن أعجبتك فالعروس لك.. هربت من مجلسهم إلى غرفة قريبة تضع رأسها بين يديها وتبكي بألم.. ظنوا أنها خجلة.

كلمتني بمجرد عودتها إلى البيت.. ما العمل؟

لابد أن أصارح أبي.. ولكن أبي لن يحتمل سماعي في قصة مصاهرة مع ابنة خالتي.. فلأحدث أمي.. كانت أمي تشعر بشيء ما بيننا وكانت سعيدة بذلك فلقد كان حبها لخالتي فوق الوصف، أكدت لي أمي أن خالتي صاحبة الكلمة في بيتها، وأنها ستقنع أبي بذلك.. كان رفض أبي عنيفًا وقال كيف تريدين أن أذهب خاطبًا من رجل يظن نفسه أنه يملك نصف البلد، أنا لن أخطب إلا ممن يكون من فئتنا ومن مستوانا..

فانصرفتُ ابتعد عن الجميع إلى غرفتي؛ لا أخرج لأحد.. كانت تدخل لي أمي وأخواتي يبكين على حالي، تضمني أمي إلى صدرها وأخواتي يتألمن ويقبلن يدي يتمنين علي أن لا أفعل بنفسي كل هذا.. كنت حزينًا لحزن أمي وأخواتي، وكنت أحس بألم والدي.. ومضت أيام قاسية، وبعد تداول بينه وأمي دخل إلى غرفتي وقال لي : اسمع يا ولدي والله لم أكن أتخيل يومًا أن أذهب للتقرب من زوج خالتك ولكني سأذهب مع أمك اليوم وقد أبلغتني أنها كلمت خالتك في الموضوع...

قبلت يد والدي وكنت أدرك حجم التضحية التي أقدم عليها.

مرت ساعة ثقيلة قبل أن يعود والدي ووالدتي من زيارتهما الحاسمة.. كل الأفكار الجميلة راودتني؛ لا سيما وأنا متأكد من موقف ابنة خالتي وان خالتي متنفذة في شأن أولادها..

فُتح الباب، أسرعت مهرولاً.. أخذني أبي في حضنه وقال سأزوجك من هي خير منها وتكون صهرًا لمن هم أفضل منهم.. كانت دموع أمي تتساقط من عينيها بكبرياء.. ما الذي حصل؟ أن أباها اخبرنا أن ابن أخيه سيخطبها وهو يمكن أن يسعدها.. وإننا لا نملك أن نوفر لها حياة كالتي في بيت أهلها أو كتلك التي عند ابن عمها.. فسألت أمي: وخالتي ماذا قالت؟.. لقد فاجأتني يا ولدي بأنها انحازت إلى موقف زوجها..

أغلقت قلبي.. سامحني يا والدي سامحني!! لقد حملتك فوق الاحتمال.. فقال وقد استجمع أمره: غدًا إن شاء الله سنذهب لنخطب لك فلقد تحدثت مع أمك في طريق عودتنا واتفقنا أن نخطب لك عروسًا جميلة ومحترمة وبنت عائلة متدينة وأخلاقها مستقيمة..

أيام قلية وإذا بي زوج لفتاة غاية في الأدب والجمال والإخلاص والطمأنينة.. ولكن لقائي بها لم يكن إلا لقاء جسد بإنسانة، أما الروح والقلب فلقد أودعتهما التحنيط..

أكملت دراستي الجامعية وبعثت بمنحة إلى الخارج.. لم أستطع أن اصطحب زوجتي وولداي.. وهناك بعد فترة اقتربت مني فتاة

متفتحة جذابة فرغبت بها وكان الأمر أسهل مما أتوقع.. كانت تأتي لمخدعي من حين لأخر.. تعرفت من خلالها على البلد ومكامن جماله وتفصيلات الحياة فيه.. كانت مؤنسة ورقيقة ومثقفة منحتني طعمًا للحياة رغم إنني لم أشعر بحبها.. كنت أحترمها كما كنت أحترم زوجتي التي بقيت بالبلد مع أولادي فما أصعب عندما تنفصم الروح عن الجسد.. كان لها مني الاحترام والجسد.. وذات يوم بينما كنا نحتسي قهوتنا صباحًا قالت لي اشعر بتقيوء واضطراب.. هل نذهب للطبيب؟ قالت لا.. اليوم مساء أذهب لبيتنا وأزور طبيب الأسرة..

عدت من الجامعة.. ألقيت بجسدي على سريري من تعب يهدني.. لا أعرف ماذا افعل والجوع يعض أمعائي.. وإذا بهاتفي: تبكي وتبكي بصوتٍ عال... ما بكِ، ما الذي حصل؟ لم تجبني بكلمة.. أين أنت؟ بالبيت.. قالتها والدموع تخنق صوتها.. نزلت مسرعًا.. ما بك ما بك؟؟ عندما عدت من عندك ذهبت للطبيب فاخبرني إنني حامل.. وهل هذا يبكيكِ يا مجنونة؟ فعانقتها بحرارة فيما هي لا تزال تبكي.. والله إني لم أخنك.. لماذا تقولين ذلك؟ أرسلني الطبيب إلى المختبر لأجري تحليلات لازمة فوجدوني مصابة بالإيدز.. ماذا تقولين؟ أصابني دوار!! إيدز... من أين؟ لا أدري لا أدري.. إذن أنا مصاب بالإيدز.. أكيد أكيد يا حبيبي!! والجنين كذلك.. نعم.. ولكني سأسقطه.

عدت إلى البلد.. استقبلتني أمي وأخواتي وزوجتي وولداي بالمطار، أما أبي فلقد كان قد توفي منذ سنة... سلمت عليهم من بعد، لم أشأ أن يقبلني أحد.. في اليوم الثاني أخذت زوجتي للتحليل والفحص فوجدتها تخلو من الفيروس.. فاعتزلت الجميع في غرفة لي.. وقررت أن أحرر هذه المسكينة مني.. أخذت بالغلظة في معاملتها.. هجرت فراشها وهي لا تعرف لم؟ إلا أنها أمعنت في الصبر فتذكرت والدي فأصبحت أحبها.. وكلما زادت إساءتي لها زادت هي في الود والحنو واللطف والصبر فكنت أحبها أكثر.. افتعلت مشاكل عديدة لتعود لبيت أهلها.. إلا إنها لم تتحرك من البيت.. لقد علمنا أبي أن نقبل جبينه وجبين أمي كل صباح وكذلك بعد عودتنا من المدرسة.. إلا إنني أصبحت ممزقًا لا أريد أن أنقل الفيروس إلى جبين أمي وأخواتي.. فحرمت من متعة القرب بهن.. إلا إنهن جميعًا لم يتخلين عن محاولاتهن بالاقتراب مني وأنا أتهرب منهن.. فكان لابد من أن أسكن بعيدًا عنهن، لعلي أتجنب احتمال إيذائهن.

هذه أيتها السيدة المحترمة قصتي..

ماذا تتوقعين، هل أنا جدير بامرأة صبرت على كل هذا العذاب؟ تنتظر أشهرًا طويلة كل سنة، فيما أنا أخلو لخليلة محملة بالإيدز.. ؟

ماذا تتوقعين، هل أنا جدير بأم كريمة عفيفة.. هل أقبل جبينها فأنجسه بفم ملوث بفيروس الرذيلة؟

أما أخواتي فهل أستطيع أن انظر إلى عيونهن الشريفات فيما أنا كنت على ما كنت عليه؟..

دعيني أيتها السيدة المحترمة لا أريد اللقاء بأحد.. بل لا أستحق هذه الأسرة الرائعة بكل معاني الكلمة.

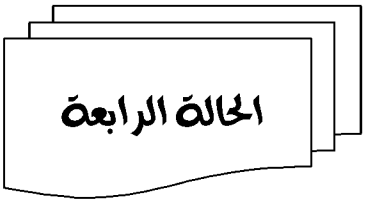

(الانتحار)

تعاملت الكاتبة مع هذه الحالة في عام ١٩٨٦م فور عودتها إلى الدوحة بعد سنوات دراسة طويلة في الولايات المتحدة..

رجل هندي يبلغ من العمر أربعين عامًا، كان يعمل بشركة كبيرة وحصل أن أفلست تلك الشركة، أو هم ادعوا ذلك، وأصيب على أثر ذلك بحالة من الإحباط اقترن فيها إفلاس الشركة بإحساسه العميق بالإفلاس في الحياة، فقد كان هذا الرجل يرسل شهريًا كل دخله إلى أسرته لتحقيق رغبته في تعليم أولاده في الهند تعليمًا راقيًا، وتوفير كل احتياجاتهم، حتى أن دخله الشهري لا يبقى منه شيئًا فبالكاد يكفي مصاريف أسرته، حتى أنه كان يقول إنه بالنسبة لأسرته كان بمثابة دفتر شيكات لا غير.. ولهذا فحينما أفلست شركته كان واقع هذا الإفلاس عليه ذا شقين.. أولهما الارتباط الشرطي بين إفلاس الشركة التي يعمل بها وإفلاسه شخصيًا، إذ أن لمعنى الإفلاس مغزى خاص مؤثر لكونه مثيرًا لشجونه وواقعه المفلس ماديًا، ولهذا تأثر تأثيرًا كبيرًا شعوريًا ولا شعوريًا بإفلاس الشركة التي يعمل بها..

أما الشق الآخر فيتمثل في أنه قد وجد نفسه في الشارع بعد إفلاس شركته، وأن دفتر الشيكات الذي كان يبقى عليه في ذاكرة أسرته انتهى بفقد مصدر رزقه، وبالتالي انتفت أسباب الوجود بانتفاء العمل، أو شعر بأن الوشيجة التي تربطه بأسرته قد انقطعت لعجزه عن الوفاء باحتياجات الأسرة.

ومن ثم تزايدت معدلات الرغبة في الموت على عوامل البقاء للشقين السابق ذكرهما.. فلم يعد لحياته مبررًا، وأصبح لديه إحساس غامر بالعدمية، ولهذا أبى أن يعود إلى بلاده وهو صفر اليدين أو يتوجه إلى أسرته التي يستمد عضويته فيها بمقدار ما يغدقه عليها.. باختصار انتفت أسباب الوجود بإفلاس الشركة التي يعمل بها.. يُضاف إلى ذلك أن الإنطوائية الشديدة وفقدان الحب وعدم الانتماء لأسباب وجدانية بأسرته.. كل ذلك صبَّ في حافز الموت حيث تضاءلت أسباب الحياة وفرصها، فأقدم على الانتحار بعد أن ترك رسالة مؤثرة لمعالجته النفسية، بعد الجلسة الثالثة.

دبيب الموت

نظرت المعالجة النفسية إلى عيني الجالس أمامها علها تجد في العينين الضيقتين الغائرتين بصيص حياة. قالت لنفسها: "ليست هاتان عينين.. إنهما مجرد ثقبين غائرين مظلمين، وأرى في داخلهما أشباح موت متحفزة للانقضاض على هذا الجسد النحيل الأسمر، لكن الجسد يقاوم، أو تساعده الظروف للإفلات من أشباح الموت، لعله لم يجد بعد وسيلة ناجحة لإنهاء حياته. الهروب من المشاكل والأسى لابد أن يؤدي إلى الانتحار، كيف أستطيع إقناعه بأن يكف عن محاولاته".

- حرام عليك أن تفعل هذا بنفسك وبأهلك.

- أليس حرامًا يا دكتورة أن تنهار كل آمالي وأحلامي مرة واحدة؟ ماذا بقى لأعيش من أجله في هذه الدنيا؟ تقولين لي: إنك تهرب. نعم أهرب.. عندما تجدين أمامك وحشًا أو خطرًا لا تستطيعين مواجهته ومقاومته، ماذا تفعلين؟ ألا يكون الهرب خير وسيلة للنجاة؟

كانوا قد أحضروه إلى المستشفى بصورة طارئة، فأجريت له عملية غسيل معدة.

- قرأت مرة عن الانتحار بالحبوب المنومة. قالوا إن ممثلة مشهورة انتحرت بهذه الطريقة، وقالوا إن الإنسان ينام نومًا عميقًا فلا يشعر بشيء ويموت وهو نائم. قلت لنفسي: ولكن الحبوب المنومة قد لا تكون كافية، لم لا أبتلع كمية أخرى من الحبوب، أي حبوب، فيكون مفعولها مضاعفًا؟ ابتلعت الحبوب لمنومة التي أحضرتها بادعاء أنني أصاب بالأرق، وابتلعت معها كل ما وجدت في أدراج رفاقي في السكن من حبوب، وانتظرت، بدأت أحس بالنعاس، ولكنني لم أنم، عطلت الآلام أناجمة عن الحبوب الأخرى نومي. كان الألم لا يطاق، وشعرت برغبة في التقيؤ، قالوا لي فيما بعد إنني أصبت بتسمم دوائي.

حظي سيء دائمًا. تعمدت أن أبتلع الحبوب في غياب كل رفاقي، ولكن أحدهم عاد بصورة مفاجئة، لأنه نسي شيئًا، فوجدني أتلوى، فحملني بسيارة أجرة إلى المستشفى وهناك أنقذوني... لماذا فعلوا؟!!.

قرأت المعالجة النفسية في ملفه أنه حاول الانتحار مرة أخرى بقطع شرايين يده...

- رأيت هذا في السينما عشرات المرات. البطل أو البطلة يفشل في قصة حب، فيلجأ إلى قطع شرايين يده، لكنني لسوء الحظ لم

أحسن اختيار المكان المناسب.. تسرعت.. كان يجب أنتظر حتى أعود إلى مكان السكن، وهناك أقطعها بشفرة الحلاقة، ولكن بدا أنهم لن يعيدونني سريعًا، وربما لا يعيدونني على الإطلاق، من أين آتي بشفرة هنا؟ إنهم يعلمون أنني حاولت الانتحار، لذلك أبعدوا عني كل أداة يمكن أن أستعملها. كم كنت متشوقًا لتجريب هذا النوع من الانتحار. رأيته في السينما. يقطع شرايين يده. ينزف ببطء، ويشعر بالنعاس وينم، بينما يتدفق الدم، ويبقى نائمًا.

قالت الممرضة في تقريرها: أحضرت له الطعام، وعدت بعد قليل فوجدت بقايا كأس الماء المكسورة، وقد قطع شرايينه بزجاج الكأس.

أنقذوه في اللحظات الأخيرة. أعادوا ربط الشرايين، وقطبوا جرحه بضع قطبات، وعادت إليه الحياة، وسجلوا في ملفه أنه حاول الانتحار للمرة الثانية.

- لماذا يصرون في كل مرة على إنقاذي؟ أليست حياتي ملكي؟ ألا أستطيع إنهاءها عندما أريد؟ أليس هذا من حقي؟.

- لماذا تريد الانتحار؟

- سؤالك مضحك يا دكتورة، مع كل احترامي ومحبتي لكِ، وتقديري لما تبذلين من جهدٍ معي، ولكنكِ كمن يزرع الورد في الصحراء، كمن يحاول أن يستخرج الزبدة من الماء. لماذا لا

أريد الانتحار؟ لماذا أبقى على قيد الحياة؟ ماذا لدي لأعيش من أجله.. آمالي وأحلامي تحطمت، الحياة التي وعدت نفسي بأن أعيشها وأؤمنها لأولادي وزوجتي تبخرت، ماذا بقى لي لأعيش من أجله؟

لم أكن أريد الكثير من هذه الدنيا.. أريد بيتًا حقيقيًا يأوي زوجتي وأولادي، ودواءً لأمي المريضة، وأن يشبع أطفالي الطعام، وأن يذهبوا إلى مدارس حقيقية ليتعلموا تعليمًا جيدًا، وأريد حذاء جديدًا وملابس جديدة، وكرافت، ولكنني لم أتعلم كيف يعقدونها ليظهر أعلاها مثلثًا نافرًا جميلاً. هل هذا كثير؟

قالت له المعالجة النفسية:

- هل تؤمن بوجود الله؟

أجاب بثقة واطمئنان:

- نعم،أنا أؤمن بالله الكلي القدرة، صحيح أنني أقصر أحيانًا في أداء واجبي تجاه خالقي حسب متطلبات ديانتي، وقد ارتكبت بعض المخالفات، ولكنني أؤمن بأن الله سيسامحني.

- إذن أنت تعترف إنك تقترف خطأ بحق خالقك؟

- لا، فخالقي لا يقبل أن أحيا هذه الحياة البائسة؟

- يجب ألا يموت الأمل بداخلك، وأن يكون عندك أمل بخالقك.. وإذا كنت مؤمنًا حقًا، فيجب أن تؤمن بأن الخالق سييسر لك الفرج.

ألحت عليه صورة أمه في تلك اللحظة، كانت ما تزال قوية، ولكنها فقيرة جائعة مع أولادها، وكان صغيرًا. كانت تقول له:

- يجب أن تؤمن بأن الله لن ينسانا، وسيأتي الفرج عما قريب.

ورغم أنه لم يكن قد تجاوز عشر سنين، فقد قال لأمه:

- من أين يا أمي؟ إننا نزداد فقرًا يومًا بعد يوم، ويبدو أن الله نسينا.

صرخت أمه غاضبة:

- لا تقل هذا. سيغضب عليك الرب، ويعاقبك عقابًا شنيعًا.

هل غضب الله عليه كما قالت أمه فجعله يعيش الفقر طوال عمره؟

تساءل فيما بعد:

- إننا نعبد الله حسب عقيدتنا، ونصلي في المعبد، ولا نغش، ونساعد الناس، فلماذا يغضب علينا الرب، ولماذا لا يغضب على الذين لا يعبدونه، ويسرقون، ويعذبون الآخرين؟، ولماذا يزداد الفقراء فقرًا، ويزداد الأغنياء غناهم يومًا بعد يوم؟.

- لكل شيء في الكون حكمة، نحن لا نعرفها.. صدقني.

صمت قليلاً ثم قال:

- هل تعرفين يا دكتورة أنني حاولت الانتحار عندما كنت في الابتدائية؟

- إمم.. صحيح!! ولماذا؟ كيف؟

ـ رسبت في المدرسة.. كنت فقيرًا وجائعًا وأكره المدرسة، لأن الأولاد كانوا يعاملونني كالكلب، فيربطون حبلاً حول عنقي ويجرونني، ويأمرونني بأن أنبح وكنت أبكي، وأرفض طلبهم، فيضربوني، وغضب أبي، فضربني بشدة بحزام بنطاله، وصرخ بي: اخرج من بيتي يا كلب. أتعب وأشقى لأحضر لكم الطعام، وأرسلك إلى المدرسة لتتعلم، وتأتي بهذه العلامات؟

وخرجت من البيت، وقررت الانتحار. لم أكن أعرف أي وسيلة، لم أسمع بمن يرمون أنفسهم من فوق جبل، وعمومًا لم يكن بالقرب من قريتنا جبل، أو من فوق عمارة، وكل بيوت قرتنا منخفضة السقوف مبنية بالطين، وبالطبع لم أكن أملك مسدسًا، ولا أعرف شيئًا عن الحبوب المنومة وقطع الشرايين.

ـ إذن كيف حاولت الانتحار؟

ـ حاولت تنفيذه كما هداني له عقلي الصغير! قلت سأموت جوعًا. سأمتنع عن الطعام حتى يقتلني الجوع.

ـ وماذا حصل؟

ـ ظللت يومين بدون أكل، وكنت مطرودًا من البيت، ولكني عندما شعرت بآلام الجوع في معدتي وأمعائي تسللت إلى مطبخ منزلنا في غياب أبي، وأكلت كل ما وقعت عليه يدي من بقايا الطعام.

نظرت المعالجة النفسية في الساعة وقالت:

- سنتابع في جلسة قادمة!

- هذا إذا كنت على قيد الحياة! رجاء لا تنزعجي مني دكتورة، الشيء الوحيد الذي سيحزنني في مسألة انتحاري هو إحساسي بأنني سأسبب لكِ الإحباط.

- قلت أراك قريبًا.

كان منذ الطفولة يحلم بأن يلبس بذلة، ويربط الكرافت فوق القميص الأبيض، كان هناك حلم آخر، أن يمون له حذاء جديد لماع، لا يذكر متى اشترى حذاءً جديدًا، لكنه ليلة عرسه استعار من صديقه حذاءً لماعًا أسود، أما فيما عدا ذلك، فإن حذاءه كان دائمًا عتيقًا، وربما كان متشققًا بحيث تبرز منه أصابعه، ويدخل الماء إلى جوفه إذا صادف ووضع رجله في بركة ماء صغيرة. لكن الكرافت كانت شيئًا آخر. إنها رمز الغنى والثروة والوجاهة. السياسيون والكتاب والشعراء والفنانون ورجال الأعمال وأساتذة الجامعات، كلهم يرتدون ربطات عنق... قال لنفسه:

- ولكنك لا تعرف كيف تعقدها.

- سأتعلم. وهل ولدوا بكرافاتات، أو يعرفون كيف يعقدونها؟

- وما حاجتك إليها، أنت رجل فقير لا تملك ما تشتري به طعامًا لأولادك ودواءً لأمك؟

- لن أبقى فقيرًا، لابد أن تفرج كما كانت تقول أمي.

كان يتردد على مكتب العمال يوميًا، وفي كل مرة كانوا يقولون له نفس الشيء:

- لم تأتِ فرصتك بعد.

ويتسكع هنا وهناك، ويعمل أحقر الأعمال، مقابل أي مبلغ يشتري به طعامًا لأولاده لعله يهرب به من تقريع زوجته الدائم:

- ألا تخجل يا رجل؟ أولادك ينامون دون عشاء معظم الأيام، ويذهبون إلى المدرسة جائعين، وأحيانًا يغمى على أحد أبنائك بسبب الجوع.

وماذا أفعل؟ ماذا أقول لها؟ أتمنى أن يشتريني أحد مقابل أن يطعمهم ويعلمهم تعليمًا جيدًا. ولكن أي مجنون سيشتريننني؟ ماذا يفعل بهذه السحنة السوداء القبيحة؟ لو كنت صبية حلوة لاشتراني أي واحد بالآلاف ولكنني رجل فقير جائع قبيح.

لم يصدق أذنيه عندما أبلغوه في المكتب بأن فرصته جاءت:

- ستعمل في أحد دول الخليج حيث البترول والذهب، ستصبح غنيًا، وستحقق كل أحلامك.

قال لنفسه:

- ها قد جاء الفرج.. سأعمل، وسأجني الفلوس، الكثير منها، سأشتري لأمي الدواء، بل سآخذها إلى أحسن طبيب، وسأشتري لزوجتي ما تريد. ولن تعيرني بعد اليوم بزوج أختها الذي تلقى تعليمًا جيدًا وأصبح موظفًا، ولكنه لص ومرتشي ولذلك صار

غنيًا. أريد أن تتاح لأولادي فرص أفضل للتعليم، ليصيروا أغنياء، ولكن دون رشوة وسرقة.. سأطلب من زوجتي أن.. بل سآمرها وقد أصرخ في وجهها لتعد لي ما أريد وما أشتهي دون أن أخاف ردة فعلها ومعايرتها لي بزوج أختها.

نظر في المرآة إلى وجهه الأسمر الشاحب المغبر، واكتأب وحز:

- هل ستغير الملابس الجديدة والحذاء الجديد والكرافت هذه السحنة السوداء؟

- ولم لا؟ الفلوس قادرة على فعل أي شيء.. ها هم الذين كانوا معي في المدرسة الابتدائية وأكملوا تعليمهم في مدارس خاصة.. وجوههم مثل وجهك وشعرهم مثل شعرك، ولونهم مثل لونك، ولكنهم لا يظهرون بهذه البشاعة، إنهم يستحمون يوميًا، أو ربما أكثر من مرة، ويرتدون ملابس جديدة ونظيفة، بل يضعون ربطات عنق، فيبدون جميلين قياسًا لسحنتك المغبرة، وشعر ذقنك النابت وقد اختلط فيه الأبيض بالأسود، مع إنك ما زلت صغيرًا.. ستحلق ذقنك كل يوم، وستذهب إلى الحلاق مرة كل أسبوعين، لا بل كل أسبوع، وتسرح شعرك حسب الموضة، وتتعطر، ولن تفوح منك رائحة العرق الكريهة مرة أخرى.

غمرته فرحة كبيرة، وتحققت كل أحلامه مرة واحدة:

- سوف تجعلني الفلوس أجمل بكثير. لن يراني الناس هكذا.. سوف تتبدل الصورة كثيرًا.. ستعجب بي زوجتي من جديد،

ستحبني أيضًا، وسيحبني أولادي أكثر، وينتظرون عودتي بفارغ الصبر. سأوفر لأمي كل ما تحتاج، وستتزايد دعواتها لي، أنا أعرف أنها تدعو لي ليل نهار، لكنها ستصير تدعو لي أكثر.. أنا بحاجة إلى دعواتك يا أمي، وهذا التوفيق من الله لم يكن سيأتي إلا بدعائك.

كان يعمل أكثر من ثلاث عشر ساعة يوميًا، يشعر بالتعب والإرهاق، يحاول أن ينسى الإحساس بالتعب والإرهاق... يواصل الليل بالنهار أحيانًا إذا اضطره الأمر أن يقوم بمناوبة أحد غيره من أجل زيادة بعض الريالات في راتبه آخر الشهر... لم يحصل على يوم واحد إجازة.. حتى أيام الجُمع والأجازات كان يحاول أن يجد خلالها عملاً إضافيًا.. لابد أن يعود لأسرته حاملاً معه كل شيء.. المهم أن يتعلم كيف يجيد رباط الكرافت.. حاول مع كل الرفاق حتى يعلمه أحدهم كيف يربطها لكنه فشل في العثور على ضالته فهم يضحكون منه ولا يرغبون بأن يعلموه كيف يربط هذه الكرافتة اللعينة.. على الرغم من أنه استطاع أن يستعيد في مخيلته صورة أطفاله وزوجته بأجسادهم النحيلة وملامحهم الدقيقة التي شعر لأول مرة في حياته أنها جميلة رغم سمرتها الداكنة.. فهم الآن في الطريق أن يتخلصوا من تلك السمرة المتسخة وتنقلب سحنتهم من النظافة والعز اللذان سيتوفران لهم من الراتب الذي يرسله كاملاً لهم

ليعوضهم عن سنوات الفقر والحاجة... واستطاع أن يستعيد كذلك ملامح أجسادهم النحيلة إنها الآن كما يتخيلها ويستحضرها في ذهنه رشيقة وليست نحيلة كما كان يراها دائمًا.. لقد كان حريصًا على أن يلحق أولاده بالتعليم الخاص حتى لا يكون مصيرهم مثل مصيره فهو لم يحظ بتعليم كاف يقيه الذُل ويفتح له آفاق العمل والحياة، ولكن رغم كل ذلك الإرهاق، يتذكر آماله الكبيرة الكبيرة تلك، ويتذكر أمه وزوجته وأولاده، فيشعر بقوة إضافية، كأن صورهم تشحن جسده بالطاقة. وعندما عرف دروب العمل صار يخرج يوم الجمعة وأيام العطل الرسمية بحثًا عن عمل، أي عمل، المهم أن يكسب بضعة ريالات. كان يفرح إذا سمع الفورمان يقول:

- غدًا الجمعة، ولكن لدينا أعمال كثيرة، من يريد أن يكسب أجرة مضاعفة، فيكون أول من ينادي باسمه.

قال له أحد رفاق السكن:

- إنك تقتل نفسك، إذا بقيت تعمل بهذه الطريقة فإن قواك كلها ستنهار قبل نهاية العام.

- إن لدي التزامات كثيرة.. أمي وزوجتي وأولادي.. وفوق ذلك يجب أن أسدد المبلغ الذي استدنته للمكتب لآتي إلى هنا.

- كلنا مثلك. وهل تظن أننا جئنا في نزهة؟ كل واحد منا وراءه أسرة وزوجة وأم وأب. انظر إلى ذاك.. إنه مسؤول أيضًا عن أولاد أخيه الذي مات العام الماضي.

- لا يهم.. يجب أن أعمل وأكسب. سأشتري لأولادي وزوجتي كل ما يريدون، وسأشتري بذلة جديدة وكرافت ولكن المشكلة أنني لا أعرف كيف أربطها.

ضحك رفيقه بالسكن ورفع صوته.

- أخونا يريد أن يصبح من الأكابر، يريد أن يتعلم كيف يربط الكرافت.

ضحكوا جميعًا، قال أحدهم:

- وما هذه الكرافت؟

جاء الفورمان يوزع الرسائل عليهم، نادى الأسماء ومنها اسمه وسلمه رسالة، عرف أنها من زوجته قبل أن يلقي نظرة عليها. من سيرسل إليه غيرها؟

لقد تعلمت قليلاً،" وهل أنا أفضل تعليمًا منها" ، قال المشرف:

- قراءة الرسائل في السكن بعد انتهاء العمل وليس الآن.

" زوجي الحبيب"..

توقف عن القراءة وقال لنفسه:

- منذ زمن بعيد لم أسمع منها هذه الكلمة.. صحيح إننا فقراء وجاهلون وجائعون، ولكننا نعرف كلمات الحب والغزل، ولم لا؟ حتى الحيوانات والطيور تعرف كيف تغازل.. لقد توقفنا عن الغزل بسبب الفقر. سمعت مرة من أحدهم يقول: "إذا دخل الفقر من الباب، خرج الحب من النافذة". غير صحيح.. أعرف أنها

تحبني، ولكن الفقر والحرمان يمنعانها من أن تعبر عن هذا الحب، لم يعد في بيتنا حديث إلا عن الأولاد والطعام والمدارس، ولكنني سأسمع منها هذه الكلمة كثيرًا في المستقبل... لنعد إلى الرسالة:

... إن الأحوال كما تعرفها، لكنها تحسنت قليلاً بفضل الفلوس التي ترسلها لنا، ولكن هذا لا يكفي.. نحن مشتاقون لك، ونعرف أنك مشتاق لنا جدًا، ولكن المتطلبات كثيرة.. اشتريت الدواء لأمك، ولكنها ما زالت تعاني ارتفاع الضغط والسكر، وأصبح بصرها شحيحًا. قال لنا طبيب الصحة العامة إنها ستعمى إذا لم يتوفر لها علاج جيد. نعرف أنك ستوفر لها هذا العلاج. ما زال الأولاد في مدارسهم ويدرسون جيدًا، ولكنهم فرحون لأنك ستنقلهم من هذه المدارس المتخلفة، مدارس الفقراء إلى مدارس جيدة.

اشتريت بعض الأشياء الضرورية، وأصلحت السقف بقدر الإمكان، ولكنه ما زال يسرب الماء عندما ينزل المطر. قال لي جارنا: لا فائدة من إصلاحه، يجب أن تصنعوا سقفًا جديدًا. وبصراحة، الجدران متهالكة وعلى وشك السقوط، ولا ينفع تدعيمها بالخيزران. لابد من بناء جدران جديدة. أي باختصار يجب هدم هذا البيت وبناؤه من جديد. قلت له زوجي في الخليج، وسيأتي ومعه مال كثير، ويبني لنا بيتًا جديدًا... متى ستأتي؟

لقد اشتقنا إليك، لا تنسى أن تحضر لي حذاءً جديدًا وحقيبة يد، وثوبًا أنيقًا جميلاً أحمر اللون بورود بيضاء لأعود كما كنت عندما كنت عروسًا".

هكذا النساء.. لا يهمها أن تسأل عن صحتي.. عن تعبي.. وشقائي هنا تحت الشمس اللاهبة، عن مرضي أو عدمه.. أحضر لنا، وأبعث لنا، وحول لنا المال.. لا يهم.. المهم أنها كتبت زوجي الحبيب.

حدث تطور مهم في حياته. ناداه الفورمان وقال له:

- ستترك العمل في الورشة.

كاد يغمى عليه، سحت دموعه بسرعة، قال مختنقًا بعبراته:

- لماذا يا سيدي؟ هل لاحظت أنني مقصر؟ أنا مستعد لمضاعفة الجهد، ولكن لا تطردني.

غضب المشرف وصرخ به محتدًا:

- يا بني آدم.. من قال إنني سأطردك.

- أنت يا سيدي.. قلت لي.

قاطعه المشرف:

- أعرف ماذا قلت، قلت ستترك العمل في الورشة، ولم أقل ستترك العمل في الشركة.

توقف النشيج، قال بإنكسار:

- لم أفهم يا سيدي.

- سأفهمك، طلب مني صاحب الشركة أن أبعث إلى مكتبه أحد العمال ليصير فراشًا عنده. فاخترتك أنت، ثم تصنع مناحة وتعكر يومنا من الصباح.

- لم أفهم.

- كيف سأفهمه هذا الـ..... ؟ يعني من الغد لن تأتي إلى هنا، تستحم، وتلبس ثيابًا نظيفة، وتذهب إلى أي مقر الشركة، لتكون فراشًا عند صاحبها ومديرها. تنظف مكتبه، تغسل سيارته، تحظر له الشاي والقهوة. تنفذ طلباته فقط، وليس عندك دوام إلا للساعة الواحدة ظهرًا.. يعني في المساء والليل "فري".

كاد يطير من الفرحة:

- سأفعل المستحيل يا سيدي.. سأنفذ كل ما يريده سعادة المدير حتى قبل أن يطلبه.. سأمسح كل شيء، حي حذاءه.. سأجعل مكتبه لامعًا كالمرآة. ولكن لي طلب يا سيدي: بما أنني لن أعمل إلا للساعة الواحدة.. هل أستطيع أن أعمل ساعات إضافية في الورشة بعد الظهر.. أنا لا أذهب إلى أي مكان، ولا أريد أن أفعل شيئًا سوى العمل. أنا فقير، وزوجتي وأولادي....

- هل ستحكي لي قصة حياتك؟ تعال إلى الورشة بعد الغذاء وسنحسب لك نصف أجر كل يوم.

"يا الله!! ما هذا الحظ السعيد؟! لقد انفتحت لك أبواب السعادة، يجب أن تفرح وترقص. سترتاح نصف اليوم من التعب ومع ذلك سيزيد مرتبك.. هذا بفضل دعاء أمي، وليعوض الله عن أيام الشقاء لأعود مرفوع الرأس أمام زوجتي وأهل قريتي".

في المساء قال لرفاق السكن:

- صار يجب أن تعلموني ربط الكرافت.

- ولماذا يجب؟

- سأعمل فراشًا في مكتب صاحب الشركة.

- ولماذا الكرافت؟ ألن تلبس بذلة أيضًا؟

قال آخر:

- يبدو أن الأخ يظن أنه صار موظفًا، وله مكتب.

وقال ثالث:

- ألا تظن أنك ستجلس على مكتب المدير نفسه؟

عاد الأول يقول:

- منذ الآن لا نناديه باسمه، بل نقول له "صاحب" أو على طريقة أهل البلاد: أهلاً عمي.

اغتاظ من سخريتهم، وإن كان الحسد يطل من عيونهم:

- على الأقل لن أحمل على ظهري وكتفي، وسأكون في الظل والبرودة وجو التكييف، والماء البارد والشاي والقهوة في كل وقت.

قال الثاني:

- ولكنك ستكون خادمًا.

- كلنا خدم لهذا الرجل.

قال الأول:

- خسئت.. نحن عمال. نتعب.. نشقى.. ولكننا لسنا خدمًا.

- كفاك تفلسفًا.. نحن خدم له بشكل أو بآخر، يعني لو طلب من أي منكم أي شيء، ألا يركض لتلبية طلبه؟ وفوق كل هذا أنا مازلت عاملاً مثلكم ومعكم.

سأل الجميع بصوت واحد تقريبًا:

- كيف؟ ألم تقل إنك صرت فراشًا في مكتب المدير؟

- دوامي في المكتب ينتهي في الساعة الواحدة، وقد سمح لي الفورمان أن أعمل معكم بعد الغذاء.

- يعني تعمل قبل الظهر فراشًا وبعد الظهر عاملاً، ماذا استفدت؟

- سيعطيني نصف أجر عن عملي معكم.

سكت الجميع وتوقفوا عن الضحك، قال واحد منهم:

- إنك محظوظ، سيزيد مرتبك.

- ليست القضية قضية حظ، هذا بفضل دعاء أمي لي.

صرخ الأخ محتدًا:

- وهل تظن أن أمي تدعو علي؟

أراد أن يلطف الجو:

- من سيعلمني ربط الكرافت؟

ضحكوا مرة أخرى:
ـ أنت فعلاً متخلف، وهل تظن أن أحدًا منا يعرف كيف يعقد الكرافت؟ وهل لدى أي منا كرافت من الأصل؟
ـ حسنًا.. سأسأل الفورمان أو المهندس. أراهما دائمًا بكرافيت.
ـ سيضربك إن شاء الله، وقد يطردك من العمل. قم لنأكل وانس أمر هذه الملعونة الكرافيت.

" زوجتي الحبيبة الغالية":
أريد أن أبشركِ بشرى تفرحين بها جدًا، لقد زاد الله فضله علي، وصرت فراشًا للمدير، ولكنني سأعمل بعد الظهر كما كنت سابقًا وسيعطونني أجرًا إضافيًا، وهذا يعني أنني سأوفر فلوسًا أكثر لأرسلها إليكم ونجمعها نباشر بإصلاح البيت وتأمين ما يلزم وسأشتري لك كل ما تريدين.
مع أشواقي لكم، وقبلاتي لكِ وللصغار.

سارت الأمور على خير ما يرام، كان يتفانى في عمله...
قال المدير للفورمان:
ـ أحسنت باختيار هذا الشاب، لم أر أنشط منه في حياتي. أريد أن أزيد مرتبه.
ـ لا تجعله يطمع يا سيدي.
ـ ولكنني أريد مكافأته.

- حسنًا يا سيدي، عندما يذهب في إجازة نعطيه مبلغًا من المال، ونقول له هذه هدية من المدير لأسرتك، وسيفرح كثيرًا.
- هذا معقول.

وما أن يغادر المدير مقر الشركة حتى يسرع إلى البيت لتبديل ثيابه وتناول بعض الطعام والعودة إلى مقر الورشة ليعمل مع رفاقه، أي شيء يكفيه، منذ أن جاء إلى هنا لم يدخل مطعم مثل باقي الرفاق كان مكتفيًا بأقل القليل فالراتب لا يكفي لتلبية الاحتياجات الضرورية للأسرة.. فكيف يمكن أن يحقق به الأحلام ؟.. لم يأكل في مطعم أو كافتيريا مهما كانت رخيصة الثمن. ثم قال لنفسه:

- لماذا أتعب وأضيع الوقت بالذهاب إلى البيت؟ لماذا لا أحضر ثياب العمل في كيس ومعها غذائي، ثم أذهب إلى الورشة مباشرة، إنها قريبة من مقر عملي... وضحك من كلمة "مقر عملي": (كأنني صرت من أصحاب الشركات).

في ذلك اليوم المشؤوم، استيقظ مبكرًا، اغتسل كي لا يشم المدير رائحة عرقه بعد عمل أمس، وحلق ذقنه، وذهب إلى مقر الشركة فرحًا. قال لنفسه في الطريق:

- اليوم سأجعل المدير يحبني أكثر بعد ما قاله الفورمان أمس، سأريه أنني ما زلت أملك طاقة كبيرة.

استغرب أنه وجد أبواب الشركة مغلقة، حتى الحارس لم يكن موجودًا، قال لنفسه:

- يبدو أنني جئت مبكرًا جدًا. ليس كثيرًا، فأنا آتي كل يوم في نفس الوقت. لعل المدير يتأخر كما يفعل معظم الأحيان.. طبعًا، فهو يسهر مع رفاقه الذين مثله- وليسوا كرفاقي- حتى ساعة متأخرة. ولكن ! إذا كان المدير قد تأخر، فأين الموظفون؟ لماذا لم يفتح الحارس الأبواب؟ أين السيارات؟ كم الساعة الآن؟ لابد أنها تجاوزت العاشرة. ماذا أفعل؟؟ سأذهب للورشة.

لم يجد أحدًا في الورشة إلا بعض الآليات وحارسًا يحرسها، سأله فأجاب بأنه لا يعرف شيئًا. كل ما يعرفه أن الفورمان جاء أمس وقال له أن يصرف العمال إذا أتوا.

عاد إلى السكن، فوجد رفاقه هناك وهم في حيرة مثله:

- ما الخبر؟ لماذا أوقفوا العمل؟

- أنا مثلكم لا أعرف شيئًا.

- قلنا إنك في مكتب المدير، ولابد أن تعرف السبب، حتى إننا كنا سنذهب إليك.

قال واحد منهم:

- سمعت الفورمان يتحدث أمس مع المهندس، وتظاهرت بأنني أعمل بالقرب منهما، ولم يهتما لوجودي. كان المهندس يقول له: إن الشركة تمر بمصاعب مالية، وقد يضطرون إلى وقف

العمل، وربما تعلن الشركة إفلاسها، لم أفهم ماذا تعني الكلمات، ولكن ها هي مفهومة الآن.

قال لهم:

- لا أصدق.. هذا الرجل الأبيض الجميل بالثوب الأبيض النظيف ورائحة العطر التي تملأ المكان عندما يدخل.. هذا الرجل لا يملك مالاً؟ لو أنه باع سيارته وحدها لاستطاع أن يشتري قريتنا كلها، فهل يعجز عن دفع مرتباتنا؟

- كم مضى عليك ولم تقبض مرتبك؟

- ثلاثة أشهر. ولكنهم سيدفعون لنا في النهاية، لقد حدث هذا سابقًا.

- يبدو أنها المرة الأخيرة التي يحدث فيها.. المدير صاحب الشركة أفلس، لم يعد عنده ما يسدد ديونه، ومنها مرتباتنا.

ومع ذلك لم يصدق.. قرر أن يبحث عن صاحب الشركة:

- هل يعرف أحد عنوانه أو بيته؟

- هل أنت مجنون؟ وهل لو كنت تعرف، هل ستذهب إليه؟

- سأذهب، يجب أن تفهم.. ما هو وضعنا الآن؟

أيده بعضهم.. وعارضه آخرون

في اليوم التالي قسموا أنفسهم إلى مجموعات، مجموعة ذهبت إلى وزارة العمل، ومجموعة أخذت تبحث عن الفورمان، ومجموعة تبحث عن صاحب الشركة

وعادوا كلهم بنفس الجواب:

ـ الشركة أفلست. والوزارة ستضمن حقوقنا، وإذا كان أحد يستطيع الانتقال للعمل في شركة أخرى فلا مانع. ولكن البلاد تمر بأزمة وكثير من الشركات أعلنت إفلاسها، ومعظمها استغنى عن كثير من عماله.

ضرب كل منهم كفًا بكف، وراح كل منهم يفكر بطريقة يحصل بها على حقوقه أو على عمل جديد... أما هو، فقد سقط مغشيًا عليه.

جاؤوا به إلى مستشفى الأمراض النفسية بعد محاولته الانتحار، بعد أن عالجوا أمراضه الكثيرة. حاولت المعالجة النفسية أن تبعد عنه فكرة الانتحار، لكنه كان قد تهدم من الداخل،عندما انهارت كل آماله وأحلامه.. سيعود أولاده إلى مدارسهم المتخلفة بعد أن اعتادوا على المدارس الراقية التي انضموا إليها بعد ترقيته، بل ربما لن يذهبوا إلى أي مدرسة، سيصيرون من أطفال الشوارع ويعملون الأعمال الوضيعة التي طالما حزن وهو يرى الأطفال الفقراء يقومون بها. لن تفرح زوجته بالهدايا والفلوس. لن يبني بيتًا جديدًا، بل لن يصلح البيت القديم، ورحم الله أمه، فقد ماتت حزنًا على غيابه، قبل أن تسمع ما حلَّ به في نهاية المطاف... كان يشعر بأن الموت يناديه.. يدب إليه دبيبًا بطيئًا، ولكنه سيصل.

" معالجتي العزيزة: معذرة... شبح الموت يطوقني.. يعانقني.. يلف الوجود بداخلي ويلقيه بعيدًا في بئر النسيان.. في الموت راحتي وبعثي.. حاولت أن أهرب منه كثيرًا لكنه كان دائمًا بداخلي يطاردني يحاورني.. أشكر لكِ محاولاتك معي.. وأعتذر لأني لم أجعلك تحقيقين النجاح الذي حلمتِ به، وأعتذر لأني لم أساعدك على النجاح في مهمة علاجي.. أنا أيضًا لم أستطيع أن أحقق النجاح في ربط الكرافت، ولكني اليوم سأعرف كيف أربطها حول عنقي.. أرجوكِ دعيها تلف عنقي بإحكام.

وفي لحظة مأساوية دامية نجح في عقد ربطة عنقه.. انفجرت رئتاه وتبخرت أنفاسه وتدلى جسده متأرجحًا، مفارقًا الحياة.

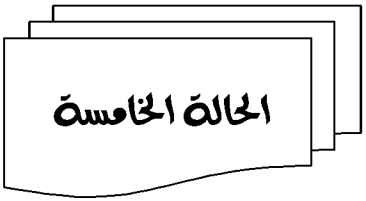

(الحالة مؤثرة)

من أشد الحالات الأولى تأثيراً بالنسبة لي في الولايات المتحدة الأمريكية.. كانت لطالبة جامعية أتت إلى العيادة تشكو من أعراض قلق، وعدم تركيز في الدراسة، وإحساس بالخوف الدائم من كل خطوة جديدة تخطوها، تبلغ هذه الطالبة من العمر تسعة عشر عامًا، كانت تعمل لبعض الوقت كمربية لطفلة لا تتعدى السنتين، حيث كانت أم تلك الطفلة تعمل لساعات طوال خلال اليوم، مما اضطرها إلى توزيع وقت طفلتها خلال فترة عملها على عدة بيوت لصديقات لها، وأحيانًا لمربيات، وكانت هذه الطالبة من ضمن المربيات المؤقتات اللاتي يقضين مع هذه الطفلة بعض الوقت..

انتبهت الطالبة إلي جسد الطفلة، والذي ظهرت عليه بعض آثار الحروق الصغيرة المتناثرة في أنحاء متفرقة من جسدها.. ظنت الطالبة في بادئ الأمر أن هذه الحروق نتاج لمرض جلدي.. أقلقها الأمر.. بدأت تتفحص.. عندها اكتشفت أن هذا النوع من الحروق لا يمت إلى الأمراض الجلدية بصلة، وقد تكون نتاج لجريمة متعمدة اغترفتها أيادي إحدى المشرفات على الطفلة.

بدأ المسؤولون في لجنة حماية الطفل بمتابعة حالة هذه الطفلة، حيث قاموا بحصر وتحديد الأشخاص الذين يرعونها خلال فترة غياب والدتها.. وانتهى التقصي إلى إثبات أن الحروق المصابة بها الطفلة كانت نتيجة لاضطراب نفسي لإحدى السيدات اللائي

كن يشرفن عليها، وتبين أنها كانت تقوم بإطفاء السجائر على بعض أجزاء جسدها.. مما تسبب في هذه الحروق.

كان ذلك مدعاة لأخذ الطفلة من أمها لوضعها في بيت رعاية مؤقتة لدى أسرة أخرى. حينئذٍ بدأت أبحث عن الأسباب النفسية التي استدعت تلك السيدة الكبيرة في السن والتي كانت تداوم على إيذاء الطفلة بالحرق.

قصة "عاشقة النار" من وحي ما دار في خلد السيدة العجوز.
أما "أعيدوا إلي طفلتي" فهي من وحي معاناة الأم التي أخذوا منها طفلتها وجعلتني أحسّ بالذنب حينما جاءتني وهي تبكي متهمة لي بأني أنا السبب وراء نزع طفلتها منها وإيداعها لدار رعاية مؤقتة، وأنها لا تستطيع الابتعاد عنها وأن النوم لن يداعب أجفانها بدون أن تكون طفلتها في أحضانها.. كان كلامها موجعاً لي حينما تخيلت نفسي مكانها.. ولكن قناعتي بما فعلت وبصحة الإجراءات المهنية التي اتخذتها جعلني أواجه الأمر بعقلانية.. أما مشاعر الأم وهي تبكي ابنتها التي أخذت منها، فقد ظلت صورتها باقية في ذاكرتي وستظل إلى الأبد.. وتابعت الحالة إلى أن أعيدت الطفلة إلى أمها وتيقنت أنها بين أحضانها وأنها ستحافظ عليها، وستقوم ببعض التضحيات في سبيل البقاء مع طفلتها أطول وقت ممكن وأن تختار من تودع لديه طفلتها بعناية.

عـاشقة النـار

تركوها عندي.. طفلة صغيرة وجميلة، شقراء، شعرها كالحرير ينساب على ظهرها، وجهها مستدير كأنما البدر، كلما نظرت إلى وجهها يسحرني جمالها، يداها غضتان طريتان وصافيتان كأنما خلقتا من لؤلؤ.. إن متعتي بتأملها لم يكن لها حد، كانت طفلة ذكية حيوية أحس كأنها تخاطبني عندما تقع عيناي علي عينيها الخضراوين، وتقول لي كلامًا متنوعًا أفهمه وأسعد بها.. لقد ملأت الدنيا عليَّ أنسًا وحياة.. لكنها إذا احتاجت شيئًا ولم ترن تبكي بصراخ متلاحق، وأنا أعرف أن وسيلتها للطلب هي البكاء لاسيما إذا كان الأمر يتعلق بنظافة، أو جوع، ولم يكن بكاؤها يزعج أحدًا من الجيران، ولم يشتكِ لي أحد منهم، حتى أن أحد الجارات قالت لي يومًا إن طفلتك لا نسمعها تبكي إلا نادرًا، ولكنه كان يزعجني.. كان كأنه إزميل يضرب بعنف في رأسي وقلبي، ويفجر في داخلي ذكرياتي كلها.. فلم تكن أمي تطيق بكائي، لقد كانت تحس أني أتحداها بالبكاء، كانت تحاول أكثر من مرة إسكاتي، لا تريد أن يخرج شيء عن سياق تفكيرها وانغلاقها على ألمها القاسي.. وحتى تحسم الموقف كانت

تضربني ضربًا مبرحًا، تهجم علي وتعضني، وتمزق شعر رأسي، وتركلني في بطني بقوة، وكان الضرب لا يكفي لتهدئة ثورتها، بل يزيدها حنقًا، وأنا أواصل الصراخ والبكاء، فكانت تضع النار على جسدي؛ على فخذي أو ذراعي.. كنت أصرخ وكانت تواصل حرقي فأسكت.. وبعد وقت أصبحت لا أصرخ إذا وضعت السيخ المحمى على فخذي خشية أن تستمر في الحرق.

ومع الزمن وكلما كان يفلت مني شيء ترى أنه يخالف ما تريد أن يبقى قائمًا من صمت فرضته علينا؛ تسرع إلى النار، فكنت استسلم للحرق الأول دونما كلمة..

لقد كان عقلها كله مشدودًا للانتقام من أبي الذي هجرها وذهب مع امرأة لم يكن لديها من المؤهلات إلا القدرة على استنزاف أمواله ومرتبه المحدود ولم تكن تحبه كثيرًا فلقد تركت زوجها – صديقه - قبل فترة وجيزة، لأسباب تتعلق بالمصروف لأنه كان حسب رأيها بخيلاً..

كانت أمي تعرف تلك المرأة، ولطالما حدثتها عن حب والدي لها وحبها له، وأنه لا يستطيع الالتفات إلى سواها من النساء.. إلا أنه ذهب دون أن يترك لنا لقمة عيش.. كانت صدمتها عنيفة، لا تريد أن تصدق.. وأصبح الصمت هو غطاءها للماضي.. لم يكن بوسعها التحرر من تلك المشاعر مشاعر الهزيمة والحنق والقهر لحظة.. فقد كانت امرأة جميلة، وكان حبها لوالدي

عظيمًا.. كانت تستقبله عند عودته تتفقد قميصه والروائح التي تعلق به، وتسأله عن تفصيلات يومه: من قابل ولمن تحدث ماذا شرب ماذا أكل؟؟؟..

كان يوفر قليلاً من النقود ليخرجا معًا كل أسبوع إلى السينما متعانقين، ويجلسان إلى أحد المقاهي المجاورة كأنهما عاشقان لم يزل حبهما دفاقا.. وفي الصيف الذي سبق هروبه أخذها في رحلة إلى مدينة بحرية، وقضيا أيامًا سعيدة في إحدى المنتجعات.

وبعد أن انسحب أغلقت قلبها دون سواه، أو بمعنى أدق أحرقت مشاعر الأنثى داخلها.. لم تعتقد يومًا أن يتركنا، فلقد كان يحبها كثيرًا، وكان زواجهما بعد قصة حب دامت سنين.. وكان يعرف مدى غيرتها عليه، ويعرف كذلك أنها ليست بالمرأة التي يمكن أن تتقبله إلا كما تريد.. لطالما أخبرها بأن حبها له يزعجه ويخيفه ويجعله كالمسكون بالشوك.. كان يشعر أنه في سجن وأن حب امرأته له لم يكن طبيعيًا.. وفي النهاية هرب منسحبًا من حياتنا ولم يعد له خبر بعد أن عرف أن أمي علمت بقصته.

دخلت عالمها صامتة ومكابرة، وحانقة منتقمة.. لا تريد أن يعكر صمتها الحاقد شيء، تخشى لو أنها استسلمت للحياة أن تخف نيران حقدها، ولم يكن أمامها إلا أنا تنتظر أي تجاوز من قبلي لتفرغ فيَّ حنقها أو تمارس حضور انتقامها بعنف، كانت تعض

على نواجذها وتزم فمها وتتحرك كالبرق نحو المطبخ، لتحرقني بالنار، ولم تكن النار بالنسبة لها إلا الوسيلة السريعة المعتادة لتفريغ الحقد والانتقام الذي سكن قلبها لكي تعود آمنة لصمتها محتفظة بالتركيز حول ما حصل لها..
وأصبحت النار بالنسبة لي.. أقصر طرق الانتقام التي تمارسها أمي ضدي.

طفلة بريئة كنت.. كم كنت أحب أن ألهو بحاجاتي من لعب كما هي طفلتي البريئة.. أغني وأرقص، وأحيانًا عندما أفتقد شيئًا ما أبكي، أو أصرخ بصوت عال، فتسرع أمي بممارسة ما اعتدتُ عليه من حرق.. كنت أتعود شيئًا فشيئًا على العقاب، كنت أحب أمي.. وشيئًا فشيئًا أصبحت أحس أن النار التي تحرقني بها هي وسيلة طبيعية مبررة لامرأة خانها زوجها وتركها وطفلتها للعدم.. لقد كانت أمي تعمل في بعض البيوت خادمة لتؤمن لنا لقمة الخبز وقليل من المال لتغطية المصاريف.. كانت تتعرض للإهانات والتحرشات فتحتقر الرجال والناس أجمعين فتعود والغضب في عينيها نار بشواظ..

كرهت النظر في المرآة واستبدلت كل رقيق في البيت بما هو خشن صلب، لم أعد أرى سوى النار.. الشمس، وضوء مصباح الممر المؤدي لبيتنا.. كم تمنيت ليال عديدة أن ألتهم النار التي تسكنه، كنت أحس بأني أكسرها بين أسناني وأسمع هشيمها

كأنها قطعة من زجاج، فأصبحت النار لازمة لكي تسير الأمور كما كان يجب..

لطالما قالت لي أمي في لحظات هدوء وصمت :

- أليس من الأفضل لو حرقت أباكِ بالنار. النار هي التي تطهرنا من الأفكار الرديئة!!

كنت أحس أن لاشيء يمنعني من التفكير بالفوضى سوى النار التي يمكن أن تحرقني بها أمي..

(انظري أنت كيف أصبحتِ؟؟) هكذا قالت لي..

وهكذا أصبحت النار سلاحي السري الذي أدركت نفاذيته كلما ذكرني أي شيء بطفولتي.. وأصبحت مقتنعة تمامًا بالتلذذ بممارسة الحرق، وأصبحت النار ومنظرها شيئًا يهيج مشاعري ويصيبني بما يشبه النشوة.

وهذه الطفلة البريئة التي عجلت بافتضاح أمري تمامًا كانت جولتي الأخيرة في التعامل بالنار على جلود الأطفال.. وهذه الطفلة البريئة كنت أنا مربيتها.. أليس من مهام المربية المداعبة؟!!. المداعبة لتعود عليها بالبهجة والسرور. ولكن أي سرور وبهجة؟! أنا أحب المداعبة بلسع الآخرين بالنار. لا عجب.. أنا أعشق النيران في كل صورها. ما الضير في هذا؟ أليس العشق قرار؟.

لقد قذفتني الأقدار لمهنة طالما كنت أتشوق لها.. أن يكون لي علاقة قريبة بالأطفال.. ومنذ أصبحت مربية وتضع عندي الأسر أطفالها تباعًا وأنا أعيش حالتي مع النار، حتى أصبحت النار عندي تمل كل وجداني.. تبتهج روحي عندما أعذب الآخرين؛ وبالذات الأطفال؛ بالنار.. أحس أني أنتقم لطفولتي المعذبة، هل فقط جلدي ما يحتمل النار؟ لم لا يكتوي كل أطفال الناس بالنار؟ لم لا تلتهم النيران أطرافهم؟ هذا اللحم الطري لم لا تشويه النار؟. إن رائحة لذيذة تنبعث من الحرائق في جلود الأطفال وبالذات إذا كانوا لا ينطقون بعد.. وطفولتي لب حاضري تلتهم الأيام. تجهض الأمان والسلام في داخلي وحولي، والعارفون ببواطن الأمور يرصون الكلام فوق الكلام. وكان اشتغالي بتربية الأطفال فرصة ثمينة لي أمارس فيها نزوتي بكي الأطفال.. لقد كانت اللذة تبلغ منتهاها عندما يكون الطفل ما بين الرضاعة والفطام لأنه يكون كثير الاستفزاز لي بتكرار بكائه مما يعني أنني سأكرر لعبتي معه بكي لحمه الطري بأعقاب السجائر، أو بملعقة أضعها على النار حتى تتوهج، أشعل شمعتي، أصنع مظلة من أصابعي الصغيرة.. تتساقط قطرات الشمعة على جسدها، تستقر سواقطها على أصابعي.. تتبلور أشكالاً بديعة تغلق على عيني أشكال الحياة الوضيعة.

إن لي طقوسًا في الحرق بالنار.. وكل مرة لها نكهتها وخصوصياتها، فأطراف الحديد والسكاكين المحماة حينًا، وأحيانًا أخرى بقطع البلاستيك المشتعلة تتقاطر على جلد الضحية مذيبة ما تقع عليه من لحم طري.. ويستبد بي التلذذ فتأتيني كل الصور.. أرى جسدًا بلا رأس.. تتساقط ملامح أمي.. ينهار ثدياها.. يتبخران في الهواء.. يستطيل لسان أمي يصنع منه مكنسة وحذاء.

أعيدوا لي طفلتي

تؤلمني الحروق التي على جسد طفلتي وكأنها حروق في قلبي.. وكلما سألت المربية عن هذه البقع الملتهبة احمرارًا على جسد طفلتي قالت لي: إنها حساسية تتجدد من حين لآخر..

وكانت تضمها إلى صدرها بحنان وتداعب شعرها وتقبلها بجنون.. فما كان يخطر على بالي سوى ما قالته لي..

ولكني كنت أحس أن جلدها كالمشوي لا تتحمل وضع المراهم والأدوية عليه.. كنت أتمزق ألمًا من رؤيتها تبكي كلما غيرت لها ملابسها أو لمست يدي بشرتها الرقيقة.. أي ذنب اقترفته عندما دفعت بها إلى سواي.. صحيح أن أباها تخلى عنها وهي في أحشائي في الشهر الثاني للحمل وأصر علي أن أجهضها.. حينها أحسست أنه أناني لا يحب إلا متعه وشهواته.. أذكر لما رأيته أول مرة في مطعم بيتزا هت شاب أنيق يستخدم سكينه وشوكته بشكل مهذب كان يجلس إلى طاولة بالقرب مني وفجأة رفعت عيني فرأيته وقد سمر عيناه نحوي.. تجاهلته أول الأمر وانشغلت بالصحن أمامي وكأس البيبسي، وعندما رفعت بنظري

مرة ثانية وجدته لا يزال ينظر إلي وقد علت شفتيه ابتسامة رقيقة.. لم يكن عندي استعداد لعلاقة عاطفية جديدة في الوقت الحالي، فلازلت مجروحة من صديق عشنا سويًا أكثر من أربع سنوات قضينا فيها أكثر الأيام روعة بين لعب وسفر وتمتع، عوضني فيها من حرماني حنان أبي الذي فقدته من الطفولة بعد حادث مرور فظيع أودى بحياته عندما ارتطمت سيارته بأحد الجسور فيما كان مخمورًا.. وأمي التي ذهبت لتجديد حياتها مع شاب آخر في مدينة بعيدة وقد تركتني لملجأ أيتام.. كان جميلاً وممتعًا ولكنه كان باردًا.. لقد زارتني أمي ثلاث مرات فقط طيلة وجودي بالملجأ.. وأذكر أنني مرضت ذات يوم وانتابتني موجة سخونة شديدة.. اتصلت بأمي أريد أن أراها قبل أن أموت فأخبرتني أنها الآن مع حبيبها في إحدى المنتجعات ولا تريد أن تفسد عطلتها، وأوصتني بتنزيل الحرارة بكمادات من ثلج..

عوضني صديقي الأول عن فقداني لحنان أمي وأبي.. حتى اكتشفته ذات يوم وقد عدت لمنزلنا على غير عادة وكان عبارة عن غرفة واحدة.. كانت المعلمة قد غابت عن حصة اللغة الألمانية فعدت لبعض الشيء فوجدته مع صديقة لي على سريرنا في وضعية سافرة.. خرجت من الغرفة ولم أعد إليها حتى تدبرت أمري..

إن جرحي لا يزال ينز قيحًا وألمًا.. فتجاهلت ابتسامته وانشغلت بطعامي وركزت عيني في صحني وانحنيت برأسي إلى الطاولة.

- مساء الخير..

رفعت رأسي فإذا هو يحمل صحنه وكأس كوكاكولا..

- هل تسمحي لي فقط لدقيقة واحدة؟ لن أزعجك صدقيني، سأقوم بمجرد أن تقولي لي لقد انتهت المقابلة!!

لم أجد بدًا من الترحيب به بلامبالاة.. الحقيقة إنني لم أستطع مقاومة إعجابي به.. لقد كان متحدثًا لبقًا وكريمًا وسيمًا ورقيق العبارة مثقفًا وممتعًا ومتنوعًا..

وبعد نصف ساعة من الحديث سألني:

- هل أنصرف؟..

أجبته بدون تحرز:

- لا لا لا!!

فضحك وأخذ بيدي وقبلها، وقمنا سويًا.

كنت أحس بوحدة تطاردني.. كنت أحب الرجل وأحتاجه.. وكان صديقي هذا يجيد ملء الفراغ في نفسي.. كنت لا أشعر بضرورة التريث.. حدثته عن تجربتي السابقة أشعرني بتألمه الشديد وتعاطفه معي..

وبعد أن أخبرته إني حامل بعد زيارة الطبيب ثارت ثائرته:

- أنا ليس لي دخل بهذا الجنين، ثم أني لا أريد طفلاً.. ألحقيه بصديقك الأول.

شعرت بإهانة في كلامه أفقدني صوابي..

قلت له: وما العمل؟

قال: الإجهاض.

فخرجت من البيت ولم أعد إليه، وقطعت صلتي به، وبقيت أنتظر متى أضع مولودي..

صحيح قد لا أستطيع أن أجزم من هو والد هذا الجنين، ولكني بالتأكيد أجزم انه ابني فلن أفرط به.. ثم كيف أفكر بقتل كائن حي يمتد في ويعبر لي عن لحظات سعيدة بغض النظر عما لحقها من أيام شقاء.. لن أجهض مهما كان الأمر.. ولكني لست أمًا، ما زلت طالبة ولا أصلح للعناية بالطفل.

جاءت لحظات المخاض.. خرجت من بيتي بعد أن اتصلت بالمستشفى القريب.. جاءت سيارة الإسعاف مسرعة، لقد كانت روحي تخرج مع دفعات الجنين في محاولته للخروج للحياة.. وبسرعة فائقة انتظرتني القابلات في جناح الولادة، كان عرقي يتصبب وألمي شديد وهن يمسحن على جبيني بمنديل أبيض.. سألتني إحداهن أين زوجي فأشرت لها بيدي أن تصمت..

وبعد عدة محاولات خرج الجنين بصراخه، وإذا هي طفلة جميلة وبمجرد أن وضعتها الممرضة على صدري نسيت كل الأوجاع..

قبلت طفلتي وأحسست أنها عالمي كله. وبعد برهة من الزمن جاءتني إحداهن وبيدها سجلاً للمواليد، سألتني عن اسمي وعنواني واسم أبيها والاسم الذي نختاره للطفلة أجبتها: أنا أبوها وأمها ليس لها أب.

كنت عازمة على الاعتناء بها وتربيتها وتهيئة كل الظروف المريحة لمستقبلها.. وأن أجنبها تلك الظروف التي عشتها لكي لا تعيش تكرارًا لمأساتي.. ولكني كنت طالبة.. ولقد منحوني بعد الإنجاب بيتًا وخصصوا لنا من التأمين مبلغًا، كنت أعمل بعد عودتي من الدراسة.. صحيح لم يكن المقهى بعيدًا عن بيتي الصغير، ولكني كنت أمكث في عملي حتى ساعة متأخرة من الليل.. فكان لا بد من البحث عن مربية.. ولقد دلتني صديقة لي على هذه المربية كما تعرفت على مربيات أخريات، حيث دفعوا لها بابنة أخيهم قبل سنتين.. كنت أدفع لها أكثر من نصف أجرتي في المقهى، وكان المتبقي يكفي للطعام ودفع فواتير الكهرباء والماء والغاز، وكنت أكتفي بملابس قديمة لا أفكر بجديد، كنت أدخر كل شيء لابنتي، أريد أن تفتح عينيها على مستقبل بلا متاعب.. الحياة كلها تغيرت في نفسي، مُتعي كلها صارت رهنًا بأن تنمو ابنتي وتصبح فتاة كبيرة تكون صديقة لي أحدثها عن مأساتي.. ولطالما سهرت الليالي وأنا أفكر كيف سنصبح صديقتين تتضاحكان وتهمس إحداهما للأخرى بدفين قلبها ومشاعرها. وكنت دائمًا أتذكر دروسًا مرَّت بحياتي،

وكيف سأشرح لها طبيعة نفوس الناس وقسوة الحياة وظلم المجتمع.. كيف يصبح الرجل غولاً بلا قانون يحمي كرامة المرأة : أمًا أو زوجة أو عشيقة، كيف أصبح الرجل عازفًا عن بناء الأسرة، ماذا سأقول لها عن وحشية الحياة المادية، وضريبة التقدم المادي التي فككت الأسر ودمرت شبكة علاقاته الاجتماعية، فأصبح الفرد في المجتمع كأنه جزيرة معزولة، وحرم المجتمع من القيم التي تجعل الحياة ممكنة وسعيدة.. سأحدثها كم مرة حاولت الانتحار قبل حملي بها وأثناء حملي بها، كم كنت أتمنى الموت كلما أحسست بوحدتي!! وكيف تبدلت الأحوال الآن؟ فلقد أصبح وجودها في حياتي يمنحني شعورًا بالطمأنينة وبأنني أستحق الحياة.. ولكن كان يزعجني ابتعادها عني لأيام الأسبوع كاملة، كنت استردها صباح السبت وأعيدها للمربية مساء الأحد.. عللت نفسي كثيرًا بأنها أشهر قليلة واستعيد ابنتي وأدخلها رياض الأطفال والحاضنات الجميلة ومن ثم إلى المدرسة.. فلا بأس حتى تجتاز طفلتي فترة الحضانة.

أجل لم أكن ارتاح لتفسيرات هذه المربية بأن هذه البقع في جلدها بسبب حساسية أو جدري ماء.. كنت كل مرة أجد بقعًا حمراء جديدة ملتهبة، وكانت طفلتي الصامتة تتأوه عندما أحاول تبديل ثيابها إذ كنت كل أسبوع اقتصد لاشتري لها قطعة من

لباس رغم تواضع ثمنها فقد كان ذلك أحد طقوس حبي لابنتي.. لم أكن مقتنعة والمربية تشرح لي عن الحساسية وأن أطفالاً كثيرين في هذا العمر تصيبهم هذه الحساسية، وأكدت لي أن كل الأطفال الذين مروا عندها في حضانة أصيبوا بمثل هذا النوع من الحساسية !!.

كانت تتكلم بلغة الواثق وتسرع لتضم الطفلة إلى صدرها بحنان يدفع عن قلبي أي وسواس وشك فيها..

نقلتها من عند تلك المرأة العجوز إلى مربيات أخريات، وكانت طفلتي تتنقل من مربية إلى أخرى.. وانتبهت المربية الأخيرة وهي طالبة نابهة إلى ما بطفلتي فسألتني قلت لها هذه أمراض جلدية عارضة وستزول مع العلاج.. لم أدر أن هذه الطالبة لها صديق طبيب شاب كان يزورها من حين لآخر.. كانت ابنتي هي الطفلة الأولى التي تدفع إليها للحضانة وقد احتاجت أن تعمل لتوفير مبلغًا من المال من جهتها وصديقها سيوفر مبلغًا أخر ليقضيا عطلة أخر السنة في شهر سياحة.. فكان لابد أن تضحي بلقاء صديقها خارج البيت لكي تتفرغ مع الطفلة الصغيرة..

ومع مساء أحد الأيام زارها صديقها في البيت وقد سبق أن كلمته عن طفلة جميلة ورائعة ولكنها مريضة ولها وضعية خاصة وقد دفعتها أمها إليها لأنها مشغولة عنها.. وأخبرته أنها عدلت رأيها بخصوص الإنجاب.. أن وجود الطفلة حرَّك بداخلها

الرغبة أن يكون لديها طفل، فاستغرب صديقها من هذا التحول المفاجئ في أفكارها حول الإنجاب ولطالما تناقشا في الموضوع فكان رأيها قاطعًا بأن لا إنجاب قبل عشرة أعوام... لم يستطع الطبيب الشاب وهو يرى هذه الطفلة الجميلة أن يقاوم رغبته في احتضانها وتقبيلها ولكنه تفاجأ أنه بمجرد ما رفعها بين يديه وإذا بالطفلة تتوجع.. فارتجفت يديه وأسرع بها إلى السرير ليكشف عن جسدها..

- من هي أمها ؟ أين هي؟

سأل صديقته مندهشًا..

- إن هذه حروق وليست حساسية.. هذه ليست جدري ماء.. من الذي حرق الطفلة؟

ذهلت الطالبة.. من الذي احرقها؟

سارع صديقها الطبيب الشاب لمعالجة الحروق.. ومنذ تلك اللحظات والطالبة المصدومة تتساءل من يا ترى حرق الطفلة؟ هل أمها؟ هل هي إحدى المربيات أم إحدى الصديقات؟؟

كانت تتمزق ألمًا وهي تدهن الحروق بالمراهم.. ولم تستطع الانتباه لدروسها، بل اضطرت للغياب عن دراستها أيامًا.. وبعد أن عادت إلى الكلية كانت شاردة الذهن غير قادرة على التركيز مشتتة المشاعر.. كانت محتاجة لمن يسمعها ويفهمها وتثق به. فكان أن توجهت للمرشدة النفسية بالكلية. فقامت المرشدة

النفسية بإبلاغ المسؤولين في المركز بهذه الملاحظة، حيث أن حالة الطفلة تقتضيها الضرورة الأمنية لتقصي الحقائق ومعرفة الجاني.. ومن ثم حمايتها..

استدعوني للمركز ووجدت طبيبًا وبين يديه طفلتي..

- هل تعرفين بأن هذه حروق بجسد طفلتك؟

قلت للطبيب:

- هذه الحساسية غريبة يا دكتور.. في محاولة لصرف نظره عن تهمة بتعمد شيء ما كالحرق.

أصر أنها حروق متعمدة، خشيت أن يكون هذا الكلام مقدمة لانتزاع طفلتي مني على اعتبار إني لا أصلح لمراعاة الطفلة.. خشيت أن يأخذوها بقرار محكمة ويدفعوها إلى الملجأ.. وهناك تنمو قيها مشاعر الحرمان واليأس والوحدة.. ومن يدري؟! حينها ستكبر الطفلة وينتظرها على قارعة الطريق من يضع يده بيدها ويقضي منها رغبته ويبحث عن أخرى فتنكسر روحها وتحاول الانتحار... حينها سأقتل نفسي.

بدأ المسؤولون في لجنة حماية الطفل بمتابعة حالة هذه الطفلة.. وقاموا بحصر وتحديد الأشخاص الذين يرعونها خلال فترة غياب الأم. وانتهى التقصي إلى إثبات أن الحروق المصابة بها الطفلة كانت نتيجة لاضطراب نفسي لإحدى السيدات اللائي كن يشرفن عليها، وتبين أنها كانت تقوم بإطفاء السجائر على

بعض أجزاء جسدها.. مما تسبب في هذه الحروق. كان ذلك مدعاة لأخذ الطفلة من أمها لوضعها في بيت رعاية مؤقتة لدى أسرة أخرى.

هل أدركت الآن أية حالة هستيرية أصابتني.. ابنتي تحرق وأنا مشغولة عنها والأيادي تتقاذفها من هذه المربية إلى تلك ومن هذه الصديقة إلي تلك.. وطفلتي الصغيرة لا تستطيع شكوى وقد تخلى عنها أبوها.. فلماذا تزيدون ألمي إيلامًا وجرحي قيحًا وتنكأه؟ لماذا تريدون لي الموت الصامت؟ هل تعرفون ماذا تفعلون الآن بي؟؟ إنكم تقتلون بداخلي الإنسان الذي عشته مع أنفاس طفلتي.. إن الإحساس بالمسئولية يقتلني!! إن الإحساس بالاختناق فيما هم يأخذون طفلتي إلى بيت رعاية مؤقتة يشتد حول عنقي... إنني أموت.

هنا لم يكن أمام الجميع إلا أن يعيدوا لي طفلتي أداويها ولا اتركها أبدًا..
واليوم عندما أخذتها.. أحسست أني ألدها للمرة الأولى.. ولعل المشهد لا ينسى عندما جئت للمركز وأنا في حالة هستيرية من البكاء أتوسل إليكم بإعادة طفلتي لي.

❖ ❖ ❖

د. موزة عبد الله المالكي

- معالجة نفسية وكاتبة قطرية.
- حاصلة على أول جائزة تشجيعية لدولة قطر في التربية والعلوم الاجتماعية والنفسية، عام ٢٠٠٥م.
- رشحت لنيل جائزة نوبل للسلام لعام ٢٠٠٥م.
- حصلت على لقب سفيرة للسلام في العالم عام ٢٠٠٨م.
- دكتوراه في مجال الإرشاد النفسي: جامعة أبرتي داندي، أسكتلندا، ٢٠٠٢م
- ماجستير علم نفس : جامعة لافيران، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٨٦م.
- تمارس العلاج والإرشاد النفسي منذ سنة ١٩٨٣. وكانت أول قطرية تؤسس مركزاً للتدريب والتأهيل النفسي في دولة قطر (مركز موزة المالكي الدولي للتأهيل والتدريب).
- نالت جائزة المرأة المثالية في المجتمع القطري، عام ١٩٩٦م.
- الجائزة السنوية لمجلس مدينة جاكسون، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٩٦.
- تكريم كتاب جريدة الراية القطرية، أبريل ٢٠٠٤م.
- كانت من أوائل المرشحات لانتخابات المجلس البلدي في قطر، وهي أول انتخابات على مستوى دول الخليج العربي.

- قامت بإعداد وتقديم برنامج أسبوعي بعنوان "أين الحل؟" على الفضائية القطرية، وبرنامج يومي بعنوان "مع موزة المالكي" على قناة المجتمع الفضائية من ٢٠٠٧ – ٢٠٠٩م.
- شغلت منصب نائب رئيس الإتحاد العالمي للصحة النفسية لمنطقة الخليج العربي، عام ١٩٩٤م.
- رئيسة لجنة الطفولة بالمجلس الإقليمي للصحة النفسية منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط، ١٩٩٥م -١٩٩٩م.
- نائب رئيس الجمعية الإسلامية العالمية للصحة النفسية، قطر، ١٩٩٥م -١٩٩٨م.
- وضعت وصممت العديد من الدورات التدريبية للنساء والأطفال العاديين والمشكلين وذوي الإعاقات والموهبين والمبدعين.
- قدمت العديد من المحاضرات والدورات في الإرشاد والعلاج النفسي، والثقافة الانتخابية؛ في مختلف دول الخليج العربي.
- ناقشت وأشرفت على أطروحات الدكتوراة لطلبة وطالبات من دول الخليج العربية بانتداب من جامعة لاهاي للعلوم التطبيقية، كلية العلوم الإنسانية والتربوية- هولندا.
- نشرت دراسات ومقالات في العديد من الصحف العربية.

- البريد الإلكتروني : mozalmalki@hotmail.com

❑ المؤلفات :

١. الأزمات النفسية العاطفية مشاكل وحلول : دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ١٩٩٥م.
٢. أطفال بلا مشاكل .. زهور بلا أشواك : دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ١٩٩٦م.
٣. عدوانية أقل. كيف تحول الغضب والعدوانية إلى أفعال إيجابية: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٧م
٤. رائحة الأحاسيس : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان - الأردن، ١٩٩٨م
٥. رحلتي مع العلاج النفسي:
- إنجاز للطباعة والنشر، دولة الكويت، ٢٠٠١م
- شمس للنشر والإعلام ، القاهرة ، ٢٠٠٨
٦. السرد القصصي والعلاج النفسي: دار المنار، القاهرة ٢٠٠٥م
٧. بعض مشكلات الأطفال السلوكية، من واقع العيادة النفسية: دار علاء الدين، دمشق – سوريا، ٢٠٠٥م
٨. مهارات تطبيق الإرشاد النفسي: المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، الدوحة – قطر، ٢٠٠٥م
٩. فتيات خليجيات ومشاكلهن العاطفية: دار النهضة العربية، بيروت – لبنان، ٢٠٠٦م
١٠. ثقافة الانتخاب : كتيب إرشادي. ٢٠٠٧م

١١. وللشباب مشاكله : دار قراءة للنشر ، القاهرة ، ٢٠٠٧م

١٢. عندما انفعل أكتب : شمس للنشر والإعلام ، القاهرة ، ٢٠٠٧م

١٣. رؤية سيكولوجية للمسرحية الشعرية " عشتار سيدة الأسرار" - كتاب مشترك مع الكاتبة حياة الرايس: شمس للنشر والإعلام ، القاهرة، ٢٠٠٨م.

١٤. Smell of Sensations رائحة الأحاسيس
شمس للنشر والإعلام ، القاهرة ، ٢٠٠٩م

١٥. Astonishment.. The Alphabet of Creativity
شمس للنشر والأعلام، القاهرة، ٢٠١١م.

١٦. عاشقة النار : قصص من واقع الحياة. شمس للنشر والإعلام ، القاهرة ، ٢٠١٣م

شمس للنشر والإعلام

رؤية جريدة في عالم النشر

في مسعى جاد لتقديم رؤية جديدة تسهم في تصحيح العديد من المسارات في مجال النشر،تأسست "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" كخطوة على طريق إرساء أسس مشروع ثقافي متكامل يهدف إلى نشر الإبداع العربي في كافة التخصصات، وإثراء صناعة النشر، وتقديم إضافة حقيقية إلى مسيرة الكتاب العربي، وفق رؤى متوازنة تجمع ما بين طبيعة عملها كمؤسسة تجارية تتطلع إلى تحقيق الربح والانتشار، وبين تحقيق رسالتها الثقافية.

وتهدف "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" إلى تحقيق عدد من الغايات، تتمثل في:

- إتاحة الثقافة الرفيعة للقارئ، وتلبية حاجاته من المعرفة.
- تفعيل حركة النشر، خاصة لشباب المؤلفين، ورعاية وتشجيع المبدعين، ودعم قدراتهم الفكرية والأدبية، والعمل على إبرازها.
- الإسهام الفعال في نشر الإبداع العربي، من خلال سياسات ترويج وتوزيع تتلاءم ومقتضيات العصر.
- حماية الحقوق الفكرية والمادية للكتّاب، وإعادة صياغة أسس التعامل المادي مع المؤلفين وفق قواعد أكثر إنصافاً.

- التعريف بالكاتب والكتاب إعلامياً وجماهيرياً، ومد جسور التواصل بين المبدع والمتلقي.
- الوصول بالإبداع العربي إلى القارئ غير العربي، من خلال ترجمة الإصدارات العربية المتميزة إلى لغات مختلفة، والعمل على خلق آفاق عالمية لنشرها بالتعاون مع دور نشر احترافية.
- إثراء الحياة الثقافية بالأنشطة والندوات والفعاليات، من خلال رؤى تنظيمية وترويجية تضمن نجاحها والمشاركة الفاعلة فيها.
- توثيق الصلات بين دور النشر المحلية والعربية والدولية، وكذلك بين الكتاب والمثقفين العرب، والتواصل الفاعل مع المهتمين على اختلاف توجهاتهم، وفق صيغ تعاون إيجابية.

ويرتكز عمل المؤسسة على منهاج "احترام الكاتب والكتاب" مادياً وأدبياً ومعنوياً، وفق عدة معايير تقوم على الالتزام التام بأخلاقيات مهنة النشر. وتسعى لتقديم رؤية جديدة لصناعة الكتاب تشمل الدقة في انتقاء المحتوى، والجودة في إخراجه وتصميمه وتنفيذه وطباعته، والاهتمام بنشره وترويجه إعلامياً ودعائياً، بما يضمن له مكاناً بارزاً في مكتبة القارئ.

شمس للنشر والإعلام

www.shams-group.net

(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065

الفهرس

- تقديم : الأستاذ الدكتور/ أحمد عكاشة ٥
- الحالة الأولى : ياما في السجن مظاليم!! ٩
  - قصة لهذا قتلتها ١٣
  - قصة ليبقى سالم سالماً ٢٣
- الحالة الثانية : ذئاب في صورة بشر ٤٣
  - قصة الليلة الخامسة ٤٧
- الحالة الثالثة : مرضى الإيدز ٦٧
  - قصة لا أستحق الحياة ٧٥
- الحالة الرابعة : الانتحار ٨٥
  - قصة دبيب الموت ٨٩
- الحالة الخامسة : الحالة مؤثرة ١١٣
  - قصة عاشقة النار ١١٧
  - قصة أعيدوا لي طفلتي ١٢٥
- التعريف بالمؤلفة ١٣٦

شمس
للنشر والإعلام

(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065

www.shams-group.net